دور الأديان
في السلام العالمي

تأليف

د. محمد سعيد رمضان البوطي

د. هانز كينغ

آفاق معرفة متجددة

www.fikr.com

سلسلة حوار مع الغرب

دور الأديان
في السلام العالمي

د. محمد سعيد رمضان البوطي

د. هانز كينغ

دور الأديان في السلام العالمي / محمد سعيد رمضان البوطي، هانـــز كينـــغ .- دمشق: دار الفكر، ٢٠١٠ .-
١٩٢ص ؛ ٢٠سم. (سلسلة حوار مع الغرب).

ISBN:978-9933-10-203-6

١- ٢٩١,١ ب و ط د ٢- العنوان ٣- البوطي
٤- كينغ ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

سلسلة حوار مع الغرب

دور الأديان في السلام العالمي

د. محمد سعيد رمضان البوطي

د. هانـــز كينـــغ

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٨٠,٠٣١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-203-6

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (القضايا الإسلامية الاجتماعية)

١٩٢ ص، ١٤ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـــ= ٢٠١١م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع معهد غوته – دمشق

المحتوى

كلمة الناشر ٧

المباحث ٩

المبحث الأول : موقف الإسلام من السلام العالمي .. ١١

الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي

المبحث الثاني : الديانات الإبراهيمية الثلاث ٧٣

الدكتور : هانز كينغ

الفهرس العام ١٧٠

تعاريف ١٨٠

حوار مع الغرب

عندما قال الشاعر الإنكليزي روديارد كيبلنغ (١٨٦٥-١٩٣٠) مقولته الشهيرة "**الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا**" لم يكن يعلم أن العالم سيتغير إلى درجة كبيرة، فالتطور العلمي والتقني في الاتصالات ووسائل الإعلام جعل العالم قرية صغيرة، فأهل الشرق يتأثرون بما يحدث في الغرب، والناس في الغرب يعرفون ما يحدث في الشرق ويتأثرون به، وربما تحركوا على الصعيد الشعبي والإنساني والسياسي لاتخاذ مواقف داعمة أو مناهضة.

لم يعد هناك شرق مطلق ولا غرب مطلق؛ ذلك أن الحضارة نتاج ثقافي شاركت في صنعه مادياً ومعنوياً العديد من الشعوب، فكانت الحضارة دُولة بينها.

لكن البعض يصر على أن العلاقة صراع بين الشرق والغرب، وهو يرى أن الحضارات الشرقية مختلفة من الناحية الثقافية والعقلية والعقائدية عن الحضارة الغربية؛ وأن الصراع بينهما حتمي، ويستحضر من التاريخ كل مآسيه، للنفخ في كير

التطرف والكراهية، وبث العداء بين الشعوب، وإشعال نار الحروب؛ الثقافية منها والعسكرية.

وباعتبار أن لكل فعل رد فعل مماثل؛ يبدأ العنف بالظهور، وتبدأ معه التعبئة الفكرية والإعلامية والثقافية والأيديولوجية.

هكذا ظهر على الجانبين عدد من المفكرين الذين دعوا إلى التمركز على الذات، وإبراز تفوق حضارتهم الخاصة، متجاهلين الحضارات الأخرى وإنجازاتها، ومشاركتها في تقدم الإنسانية. مما كان له تداعيات سيئة على الحضارة الإنسانية عموماً.

من هنا برزت الحاجة إلى الحوار لتأسيس أرضية إنسانية مشتركة، بعيدة عن التعالي والتمركز حول الذات؛ تقوم على الحوار والتعارف والتكامل، فالحوار هو الطريق الموصل لتقارب الأفكار والرؤى، ولوضع الحلول التي تجعل الجميع أسرة واحدة بعد أن أصبحت الكرة الأرضية قرية واحدة.

تهدف هذه السلسلة من الكتب لتعريف كل طرف على فكر الآخر، وتقدم أبحاثها بموضوعية وجرأة بعيداً عن المجاملات، فالهدف هو الوصول إلى الطريق العملي للتعارف، وفهم الذات والآخر بوضوح، والتفهم لخصوصيات وثقافات الآخر، واحترام حقه بالاختلاف؛ وسيلةً لنمو الحضارة والثقافة الإنسانية.

دور الأديان في السلام العالمي

١- موقف الإسلام من السلام العالمي

الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي

٢- الديانات الإبراهيمية الثلاث

تحولات تاريخية - تحديات الوقت الحاضر

الدكتور : هانز كينغ

موقف الإسلام
من السلام العالمي

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على كل حال. وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فيا أيها السادة والسيدات: في اللقاءات السياسية تتغلب الدبلوماسية عادة على الشفافية، أما في مثل هذا اللقاء فأعتقد أنه يجب أن تتغلب الشفافية على الدبلوماسية.

ويقيناً مني بهذا الذي أقول، أستطيع أن أبدأ حديثي بأن أقول لكم: إني اقترحت أن يكون عنوان هذه الندوة: دور الدين، لا دور الأديان، في ترسيخ السلام العالمي.

وإليكم بيان السبب في ذلك:

من المتفق عليه عند جميع رجال الدين في العالم أن التاريخ الغابر رصد بعثة رسل وأنبياء كثيرين، عرفنا أسماء بعضهم، وهم الذين وردت أسماؤهم في القرآن والكتب

السماوية الأخرى، وغابت عنا أسماء أكثرهم؛ وهم الذين لفت القرآن نظرنا إليهم بمثل قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥]، وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٨]. وهذا على خلاف ما هو شائع عند كثير حتى من المفكرين الإسلاميين والواعظين الذين تألقت أسماؤهم في وسائل الإعلام، من أن جميع الرسل والأنبياء إنما بعثوا في منطقة الشرق الأوسط، وفيهم من يتكلف البحث عن الحكمة من ذلك. وهذا خطأ مكشوف وفاحش.

ثم إن مما لا يتأتى الخلاف فيه أن دعوة كل نبي ورسول تضمنت إبلاغ الناس أمرين اثنين:

أولهما العقيدة، أي تعريف الناس بحقيقة الكون والإنسان والحياة، وبمنهاج رحلة الإنسان في وجوده النوعي الذي يعيشه.

ثانيهما التشريع والأخلاق، والمراد بهما مجموعة التعاليم السلوكية التي ينبغي أن يأخذ الإنسان نفسه بها، سواء فيما يتعلق من ذلك بذاته، وما يعود من ذلك إلى علاقته مع الآخرين.

والانضباط بالعقيدة هو الذي يجعل من الإنسان بعيداً عن الإلحاد، ومصطبغاً بالدين، حتى ولو لم يلتزم بالأحكام السلوكية، التي تدخل في قسم التشريع والأخلاق.

ومن المعلوم أن العقائد التي يتلقاها الإنسان من الكتب السماوية، داخلة - فيما يسمى بمصطلح اللغة العربية - في قسم الإخبار، ولا علاقة له بالإنشاء.

والخبر هو الكلام الذي يصح أن يخضع قائله لأحد وصفي الصدق أو الكذب. أما الإنشاء فهو إما أن يكون أمراً أو نهياً أو استفهاماً، ومن ثم فإن قائله لا يمكن أن يوصف بالصدق أو الكذب في ذلك، لأن المنشئ لا يوصف بأي منهما.

ومن هنا كان الإنشاء خاضعاً لإمكان نسخه ببديل عنه، كأن يأمر المتكلم بشيء، ثم يلغي بعد حين أمره بذلك. في حين أن الإخبار ليس خاضعاً، فيما يجزم به العقل، للنسخ والإبدال. بل إن المتكلم إذا أخبر بشيء ثم ألغى إخباره به وأخبر بنقيضه، فهو لابد أن يُنعَتَ بالكذب في أحد الخبرين، أو بالخطأ في أحدهما.

ونظراً إلى أن العقائد التي جاءت بها الكتب السماوية من نوع الإخبار، ونظراً إلى أن الله جل جلاله منزه عن

الكذب وعن التورط في الخطأ، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، إذن فمن المستحيل أن يخاطب الله عباده، عن طريق كتبه السماوية، بأخبار متناقضة، إلا في نظر من يرى إمكان اتصاف الله بالكذب فيما يخبر عنه، أو يرى إمكان تورطه بالخطأ في إخباراته المتناقضة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إذن، فالعقائد الدينية - وهي من نوع الإخبار كما علمنا - لا يمكن أن تتناقض أو أن تختلف مضامينها ما بين نبي وآخر، أو ما بين كتاب سماوي وكتاب سماوي آخر. في حين أن الشرائع - وهي كما علمنا أحكام سلوكية - تتبع المصالح الإنسانية التي قد تتبدل من عصر إلى آخر.

وتتلخص العقائد الدينية في التبصير بحقيقة الكون والإنسان والحياة، ويشمل ذلك بيان وجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات والأفعال، كما يشمل الإخبار بما وراء الموت من الحياة البرزخية، وبما وراءها من اليوم الآخر والحساب والمآل الأخير المتمثل في الاستقرار في الجنة أو في النار.

إذن فقد تبين أن كل نبي كان يدعو قومه الذين أرسل إليهم إلى الإيمان بهذه الحقائق. ومن ثم فقد كان كل منهم يأتي مصدقاً لدعوة من قبله ومبشراً ببعثة من سيأتي بعده.

وهكذا فقد تلاحقت بعثتهم إلى مختلف الأقوام والأمم ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أمرهم الله بتبليغها وحمل الناس على الإذعان لها، ألا وهي الدينونة لله وحده إلهاً واحداً لا شريك له، يتصف بكل صفات الكمال ويتنزه عن كل صفات النقصان.

وهذا ما بيّنه الله صراحة في قرآنه المنزل على آخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ، وذلك في قوله عز وجل:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٣].

بل إن العقل لا يتصور أن يختلف الأنبياء - بعد يقيننا بنبوتهم وصدقهم - في شأن الدعوة إلى العقيدة، ولا يمكن أن يصدق بوجود أي مسوغ لأن يخاطب هذا الإله الواحد الذي نؤمن جميعاً به، عباده عن طريق رسله بإخبارات متناقضة، وأن يكلفهم بمعتقدات متضادة، بحيث يجعل من اختلاف المعتقدات التي يخاطبهم بها سبباً لاستثارة طائفة من عباده على طائفة أخرى، وبحيث تصبح هذه المعتقدات المتصادمة سبباً للخصام بدلاً من أن تكون أداة للوفاق والوئام.

إذن، فإن أول ما ينبغي أن نجتمع عليه، هو الإقلاع عن التعبير بكلمة «الأديان السماوية»، وأن نستبدل بها «الدين السماوي»، على أن نعلم أن الرسل والأنبياء قد بعثوا بشرائع متعددة. إن التعبير بالشرائع بدلاً من الشريعة في هذا المقام سليم ودقيق. أما التعبير بالأديان بدلاً من الدين فباطل من القول، لا يؤيده العقل ولا يتفق مع يقيننا بصدق الرسل والأنبياء، ومع يقيننا بتنزه الله عن النقائص والفحشاء.

وعندما نعلم أن المعتقدات التي بعث بها الرسل والأنبياء واحدة، لابدّ أن يقودنا العقل السليم إلى الإيمان بها والاجتماع عليها. وعندئذ لابدّ أن تتمتع الأسرة الإنسانية المنقادة للدين، بوحدة فكرية وسلوكية، ولا بدّ أن يسيَّج وجودها بسياج العدل والسلام الشاملين.

❀ ❀ ❀

لذا، وانطلاقاً من الشفافية التي ألزمت نفسي بها، في فاتحة هذا البحث، والتي أعدها رأسمالي الأول في مثل هذا الحوار، أستطيع أن أقول:

إنني عندما أتحدث عن موقف الدين، وليس الأديان، من السلام العالمي ودعائمه ومؤيداته، فإن الإسلام، يقيناً،

هو الترجمان الأمين لجميع الرسالات التي بعث بها الرسل والأنبياء؛ وذلك لسببين اثنين: أولهما أن محمداً إنما بعث إلى الناس كافة، في حين أن كلًّا من الرسل والأنبياء السابقين إنما بعث لقومه خاصة. ثانيهما أن محمداً ﷺ هو آخر الرسل والأنبياء بعثة، فلا نبي بعده باتفاق سائر أهل الكتاب.

إذن فحديثي الآن عن موقف الإسلام من السلام العالمي اختصارٌ لحديثي عن الرسلات التي بعث بها سائر الرسل والأنبياء.

إن أول ما يواجهني به الإسلام تعبيراً عن موقفه من الأسرة الإنسانية جمعاء، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ومن المهم أن نلاحظ بأن قرار هذا التكريم جاء خِلعةً للأسرة الإنسانية جمعاء قبل أن تتوازعها فوارق الدين والمذاهب المصطنعة، ودون أي اعتبار للطبقة المستعلية أو الهابطة. وإننا لنعلم أن التكريم الشامل بهذا الشكل، أصدق تعبير عن غرس هذا التكريم دعائِمَ السلام وموجباته ومسلتزماته، في المجتمعات الإنسانية كافة. إذ كيف يتأتى تكريم الله الأسرة الإنسانية جمعاء، إن سلّمنا بتعريضه لها

لما يناقض السلام، ولما يحرمها من فرص الأمن والطمأنينة ورغد العيش؟!..

❁ ❁ ❁

ولكن الإسلام الذي أخبرنا بقرار تكريم الله للإنسان، وأنبأنا بالقرار الذي يستلزمه هذا التكريم، وهو إحاطة المجتمعات الإنسانية بسياج الأمن والسلام، افترض وجود من يصرّ على اختراق هذا السياج باستخدام أسباب الوقيعة والخصام، سعياً وراء مغنم، أو رغبة في الاستئثار بسلطة، أو طمعاً في استخدام مستضعفين، وهذا الذي افترضه الإسلام موجود ومستمر من أقدم العصور إلى هذا اليوم، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فما السبيل الذي ينبغي أن يُتَّخَذَ إلى حماية السلام العالمي الذي هو الثمرة الأولى لتكريم الله الأسرة الإنسانية جمعاء؟

لا يختلف عاقلان في أن السبيل الذي يجب أن يُتَّخذ إلى ذلك، إنما يتمثل في الضرب على أيدي الذي يصرون على العبث بالسلم، استجابة لرعوناتهم وأطماعهم. ولا ريب أن المتساهل في النهوض بهذا الواجب، يزهق ما تستظل به الأسرة الإنسانية من رواق الأمن والطمأنينة، ومن ثم فإن

التساهل في الضرب على أيدي هؤلاء العابثين مساهمة نكراء من أولي الأمر في عبثهم بالسلم، وتواطؤ منهم مع المتربصين به والمتآمرين عليه.

والكلمة الجامعة المعبرة عن العبث بالسلم والتآمر عليه، في القرآن، هي كلمة (الظلم). والكلمة الجامعة المعبرة عن حماية السلم والسهر على رعايته وحمايته، في القرآن، هي كلمة (العدل).

فحيثما أمر القرآن بالعدل، وكلما أمر بتنفيذ أحكامه، فهو أمر منه بحماية السلم العالمي وإقامة دعائمه. ومن آياته التي يأمر الله فيها بإقامة موازين العدل قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٥/ ٨]، ومنها أيضاً قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢].

وحيثما حذر القرآن من الظلم ونهى عنه، فهو نَهْيٌ للناس عن العبث بمقومات السلم وأسباب الأمن، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٢].

إن السلم في ميزان القرآن وحكمه، أقدس ثروة يجب أن تحافظ عليها المجتمعات. أرأيت إلى لصوص توجهوا إلى

ثروة مالية يريدون اقتناصها من أصحابها، أو إلى عِرْض يريدون استلابه والعدوان عليه، أو إلى أرض يريدون اغتصابها من ملاكها، إن هذه كلها ثروات مقدسة، ولكنّ ما هو أقدس منها كلّها، السلم الذي تتمتع به الأسرة الإنسانية.

فإذا كان العدوان على الثروات المالية، وعلى الأوطان، وعلى الأعراض، يستوجب - بإجماع العالم - إنزال العقوبات الصارمة بالمتورطين فيها، فإن المتربصين بسلم المجتمعات الإنسانية والمعتدين عليه، يجب أن ينالهم - وبإجماع العالم كله - من العقاب ما يتجاوز عقاب سائر المجرمين.

ذلك لأن غياب السلم هو المصدر لتلك الجرائم التي يجمع العالم على ضرورة إنزال العقاب بمرتكبيها. فمن تساهل في الوقوف في وجوه العابثين بها والمتربصين بها، فلن يتأتى له القضاء على سلسلة الجرائم الأخرى.

من هنا كان سلام الأمة أقدس ما تجب حمايته والمحافظة عليه. والنص القرآني المعبر عن ذلك صراحة، قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨].

ومن هنا كان العدوان على سلام الأمة أشنع جريمة تستأهل العقاب الصارم، في قرار الإسلام وحكمه. والنص القرآني المعبر عن هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

لعلك تسأل، أو تستشكل فتقول: إن الآية التي استشهدت بها على قدسية السلم ووجوب حمايته، تخاطب بذلك المسلمين أي المؤمنين دون غيرهم. أليس في هذا ما يدل على أن القرآن إنما يعنيه السلم الذي ينبغي أن يمتد رواقه على المسلمين، دون أن يبالي في ذلك بغيرهم؟..

والجواب أن من المعلوم بداهة أن مدرساً صاحب اختصاص علمي، إنما يبدأ تدريسه بتعريف الطلاب على اختصاصه العلمي مقروناً بالبراهين، حتى إذا عرفوا ذلك وأيقنوا بمكانته العلمية فيما يريد أن يعلمهم إياه، أخذ يخوض بهم في مسائل ذلك العلم.

إن المراد بلا شك، تحقيق النفع العلمي لهم جميعاً، ولكن سبيل ذلك هذا التعريف الذي لابدّ منه أولاً. فمن أعرض عن المقدمة التي يعرف فيها الأستاذ على مكانته العلمية وشواهد اختصاصه العلمي، فلا ريب أنه لن يكون مشمولاً بالخطاب التعليمي للمدرس، غير أن الذي أخرجه

عن شمولية الخطاب التعليمي ليس المدرس، بل هو الذي أخرج نفسه عن ذلك الشمول عندما أعرض عن المقدمة التي واجه بها المدرس طلابه؛ إذ كشف لهم عن قدراته العلمية والشهادات التي تنطق له بذلك.

إن الله عز وجل دعا عباده جميعاً عن طريق رسله وأنبيائه، إلى أن يتأملوا في الدلائل العلمية على وجود صانع حكيم عليم قادر لهذا الكون، وأن يؤمنوا بألوهيته إلهاً واحداً عليهم، ويؤمنوا بعبوديتهم ومملوكيتهم له، كي يثقوا بصحة التعاليم التي يواجههم ويكلفهم بها. فكان في الناس من استجاب فتأمل ثم آمن وأيقن.. وكان فيهم من أعرض وتشاغل واستكبر.. إن من البداهة بمكان أن التعاليم الإلهية إنما توجه إلى أولئك الذين عرفوا ألوهية الله للكون وربوبيته لهم، لأنهم هم المهيؤون للإصغاء إلى تعاليمه وللاستجابة لأوامره. أما الآخرون فإن من العبث مخاطبتهم بما لا يؤمنون به، لأنهم لم يؤمنوا بعدُ بمن هو أهل لفرض أحكامه، وبمن هو المالك لرقابهم والمتحكم بحياتهم ومصيرهم..

إذن فالتعاليم الإلهية موجهة في الأصل إلى الناس جميعاً، ولكن سبيل وصولها إليهم بالإذعان والقبول، أن تمرّ بقناة الإيمان بصاحب هذه التعاليم، فإن لم تمرّ بهذه القناة

مع التصديق والإذعان، غدت مخاطبتهم بها عبثاً تنأى عنه الحكمة وموازين الرشد.

إذن فقد انتهينا إلى يقين بأن كل من قاوم ميزان العدالة بين الناس، واستمرأ الظلم وأسبابه، فقد أعلن بذلك عدوانه للسلام وحاول استجرار المجتمعات الإنسانية إلى التهارج والحروب، كما انتهينا إلى أن كل من سار في طريق العدل وتمسك بضوابطه لابدّ أن يصل إلى واحة السلم، شاء أم أبى.

❀ ❀ ❀

فهذا الذي تمَّ بيانه، يضعنا أمام المعنى الذي يتضمنه (الجهاد القتالي) الذي شرعه الإسلام، ويكشف لنا عن أدبياته وعن الغاية التي شرع من أجلها.

إن وظيفته كبح جماح البغي والعدوان، وحماية السلم الاجتماعي من كل ما قد يتهدده من سهام الكيد والإجرام. وإن وقائع التاريخ خير شاهد على ذلك.

وحسبك أن تعلم ما هو مقرر في الشريعة الإسلامية بالإجماع، من أن السلم على الأرض هو الأساس الذي يجب ترسيخه والسهر عليه، وأن الحرب حالة عارضة لا تشرع إلا لحماية السلم مما قد يتهدده، ولإلجاء البغاة

والمعتدين إلى الرجوع عن غيهم وبغيهم والركون إلى واحة السلم. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٦].

في الناس من يتجاهل هذه الحقيقة، ويقول: إن أول ما يبطل هذا الذي تقوله عن مبررات الجهاد في الإسلام، اسم «الغزوة» أو «الغزوات» التي أطلقها المسلمون أنفسهم على الحروب التي شنها محمد ﷺ على الآخرين. وهل الغازي إلا ذاك الذي يفاجئ الناس بالحرب والقتال، وهم آمنون مسالمون؟

والجواب أن كلمة «الغزوة» أعم من أن تدل على هذا المعنى الخاص الذي لم يوجد في أي من الغزوات التي قام بها رسول الله ﷺ. إن موقعة الخندق تسمى غزوة، وإنما أقبلت أحزاب البغي من جهات شتى تقاتل رسول الله والمسلمين في عقر مدينتهم.

وإن موقعة أُحد أُطلق عليها اسم الغزوة، وإنما أقبل فيها المشركون إلى المدينة لقتال المسلمين، وليثأروا لقتلاهم في معركة بدر.

ومعركة بدر تسمى غزوة وإنما أقبل فيها صناديد الشرك من مكة إلى المدينة قائلين: «والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً ونقتل محمداً وصحبه، ونقيم ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونُسقَى الخمرَ وتعزِف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا فلا يزالون يهابوننا»(١).

وموقعة حنين سميت هي الأخرى غزوة، وإنما سببها اجتماع قبيلتي هوازن وثقيف واتفاقهم على التوجه إلى حرب رسول الله، بعد أن توغرت صدورهم للنصر الذي آتاه الله رسوله والمؤمنين بفتح مكة، فحشدوا حشوداً كبيرة ونزلوا بأوطاس، وأجمعوا المسير من هناك إلى رسول الله، فخرج إليهم رادّاً لبغيهم، مدافعاً عن السلم الذي رفع ﷺ لواءه في مكة أمام المشركين.

وموقعة «ذات الرقاع» سميت هي الأخرى غزوة، وإنما كان سببها الغدر الذي مارسه بعض قبائل نجد والذي تجلى في مقتل الدعاة السبعين الذين أرسلهم رسول الله إلى

---

(١) أما خروج طائفة من المسلمين قبل ذلك للاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام، فقد كان العذر الذي دعاهم إلى ذلك محاولة تعويض جزئي عن أموالهم وممتلكاتهم الكثيرة التي استولى عليها المشركون في مكة. على أن الله شاء أن يفلت منهم العير، وأن يواجههم النفير الذي لم يكونوا يحسبون له حساباً.

نجد دعاةً إلى الله معرفين بالإسلام، مسالمين لا يريدون شراً بأحد. فكان من مقتضى العدالة والدفاع عن الحق معاقبة أولئك القتلة والاقتصاص منهم.

وقد سميت موقعة خيبر هي الأخرى غزوة، وإنما كان سببها ما علمه رسول الله من أن يهود خيبر قد اتفقوا مع قبيلة غطفان على حرب المسلمين، وراحوا يأخذون أهبتهم لذلك، فقطع رسول الله الطريق بين خيبر وقبيلة غطفان، ثم سار إليهم وعاجلهم الحرب التي عزموا عليها مع قبيلة غطفان.

أجل.. الغزو يحمل معنى من معاني الاقتحام.. ولكن ما أعدل الغزو عندما يكون اقتحاماً لأوكار المعتدين والمخططين للوقيعة والشر، وقد أوضحت لك مظاهر ذلك. فلا يتقربنّ شخص محدود في فهمه للعربية ذو ثقافة سطحية في فهم السيرة النبوية، بالمجاملة والمداهنة، إلى خصوم هذا الدين وأهله، داعياً إلى طي الحديث عن غزوات رسول الله، والإقلاع عن الاحتفال بذكرياتها؛ لأنها تحمل إلى العالم تهمة العدوان من رسول الله على من يغزوهم في عقر دارهم.

وهذا الذي أوضحناه من معاني الغزوات التي قام بها رسول الله ﷺ ودوافعها، وهي معانٍ يعتزّ بها العدل، وتخفق فيها راية السلم، أقول: هذا الذي أوضحناه لما تم من ذلك

في عهد رسول الله، هو ذاته الذي يتجلى في عصر الفتوحات الإسلامية بعد رسول الله.

إن مصر والشام، كان كل منهما إبان بعثة رسول الله مستعْمَرة من قبل الرومان. وقد عانت المسيحية، ولا سيما اليعاقبة، تحت نير الاستعمار الروماني، ويلاتٍ تشيب لذكرها الرؤوس في كل من مصر والشام.

وقد ظل هذا الاستعمار يكيد لكل من اليهود والنصارى، ويؤلب كلّاً من الطائفتين على الأخرى، ولا سيما في القدس وما حولها، وما فتئ يؤجج بينهما نيران البغضاء، إلى أن أُجلي الاستعمار الروماني عن بلاد الشام بفضل الفتح الإسلامي. فتنفَّس النصارى واليهود الصُّعداء، وعقد بينهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رابطة التواصل والصلح وأعاد علاقة ما بينهما إلى رواق الأمن والسلم. وتلك هي الصورة ذاتها التي تحققت عند الفتح الإسلامي في مصر.

إذن، فيكذب من يزعم أن الفتح الإسلامي كان يهدف إلى إرغام الكافرين على الإسلام، إن وقائع التاريخ لتنطق بإفكهم. وإن من أبرز الوقائع أن عدد النصارى في بلاد الشام بقي إلى ابتداء سلسلة الغزوات الصليبية، مساوياً لعدد المسلمين، بل ربما يزيدون، ولم تضق الشريعة الإسلامية المطبقة، ذرعاً بهم..

ولما أقبل الغزاة الصليبيون إلى الشام، أصر نصارى الشام على أن يتخذوا مواقعهم إلى جانب مواطنيهم المسلمين في خندق قتالي واحد. ولعل المهتمين بدراسة التاريخ الإسلامي من الغربيين الذين لا يزالون يروجون الأكذوبة القائلة بأن الإسلام إنما انتشر في هذه البقاع بالسيف، أقول: لعلهم يعلمون ما نعلم من أن رسول الله أوصى خيراً بأقباط مصر، وأن الفتح الإسلامي كان مقروناً، أينما كان، بالوصية الإسلامية القائلة: ألا لا يُفتننَّ نصراني عن نصرانيته. وقد التزم أصحاب رسول الله ثم التابعون ومن تبعهم من بعدهم بهذه الوصية، بل بهذه القاعدة الشرعية الكبرى.

❀ ❀ ❀

شيء آخر، ما ينبغي أن يغيب عن بال من يهتمون بهذه المسألة، من أي الفئات كانوا؛ إنه الإسلام الحضاري الذي يحتضنه ويرعاه الإسلام الاعتقادي الشخصي.

إن المجتمع الإسلامي يتكون من جذور العقيدة الإسلامية القائمة على براهين المنطق والعلم. وينبثق من هذه الجذور جذع الشريعة الإسلامية التي تتسع أحكامها لعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض، كما تتسع لعلاقة المسلمين مع

غيرهم من الكتابيين. وتنهض هذه العلاقة الثانية على جامع مشترك بين المسلمين وغيرهم ترسمه الشريعة الإسلامية وتتبنى وسائل تنفيذه وتحقيقه. إنه الإسلام الحضاري الذي يتفيأ ظلاله المسلمون وغيرهم، وذلك من خلال مظلَّة الشريعة الإسلامية ذات الأحكام السمحة التي روعي فيها جمع المسلمين والكتابيين على كلمة جامعة سواء، كما روعيت فيها العلاقات الندية القائمة على البرّ والقسط، بقطع النظر عن وحدة الدين أو اختلافه. وذلك هو النسيج الحضاري الشامل المنبثق من جذور العقيدة الإسلامية، ثم المنبثق من أحكام الشريعة الإسلامية.

وكلمتا «البر» و «القسط» اللتان تشكلان سدى الحضارة الإسلامية ولحمتها إنما أمر بتحكيمهما القرآن، واتخاذهما أساساً لا محيد عنه في رسم العلاقة السارية بين المسلمين والكتابيين، في ظل الإسلام الحضاري المنبثق من جذور الإسلام الاعتقادي.. تأمل في هذا الذي يقوله القرآن:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨].

إذن، ثمة وحدة حضارية شاملة تحتضن المسلمين وغيرهم، غذاؤها يقوم على السلم المتبادل الذي يعبر عنه

القيدان الصريحان في الآية: ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ فإذا روعي هذان القيدان من قبل غير المسلمين كان واجب المسلمين أمام ذلك مدّ رواق البرّ والقسط، حيث السلم والعيش الحضاري المتبادل.

إن وحدة الحضارة الإسلامية الجامعة، تتجلى في مجالين اثنين: **أحدهما** مجال الأحكام الشرعية التي تجمع المسلمين مع غيرهم على نسق واحد من العلاقات الإنسانية الوثقى، بعيداً عن الحساسيات والعوامل المفرقة .**ثانيهما** مجال العلاقات الاجتماعية والتعاون العلمي والثقافي والسياسي ونحوه.

أمّا مجال الأحكام الشرعية، فنذكر منها نماذج لأحكام جعلها الله ضمانات لحماية الألفة التي ينبغي أن تظل سارية بين المسلمين وغيرهم. وإليك بعضاً من هذه الأحكام:

أ- إذا علم المسلم أن جاراً أو صديقاً له أو زميلاً معه في عمل، يهودياً كان أو نصرانياً، دخلت فرحة ما إلى داره بمناسبة ما، كمولود أو زواج أو شفاء من مرض.. يسنّ للمسلم أن يزوره في داره وأن يهنئه بالفرحة التي يتمتع بها، وأن يشعره بمشاركته في فرحته تلك.

ب- إذا مني جاره أو زميله أو أي من معارفه من غير المسلمين بمصيبة ما، يسن للمسلم أن يدخل إلى داره،

فيعزيه بمصابه، وأن يعبر له عن الألم الذي يشترك معه فيه للمصيبة التي ألمت به.

ج- لو أن كتابياً كان يحمل زجاجة خمر إلى داره، فأقبل شخص مسلم إليه، وسلبه الزجاجة وحطمها أرضاً، بسائق من التطرف الشارد عن ضوابط الدين، فإن المسلم المتلف لها يصبح بذلك ضامناً لها، ويكلف شرعاً بإعطاء قيمتها لصاحبها الكتابي، بالغة ما بلغت.

د- إذا وثق ولي أمر المسلمين بمواطن كتابي، نصراني أو يهودي، وتبين له صلاحيته لتولي أي من وزارات التنفيذ في الدولة، كان لولي الأمر أن يسند تلك الوزارة إليه، بل يجب عليه ذلك إن كان هو الأفضل في القيام بتلك المهمة من غيره.

وأما في مجال التعاون عن طريق العلاقات العلمية والاجتماعية والأدبية والسياسية ونحوها، فقد شهد التاريخ الإسلامي من ذلك صوراً حضارية مشرقة نسجها الالتزام الصادق بأحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه..

تأمل في الأنشطة العلمية التي ازدهرت في العصرين الأموي والعباسي، تجد أن أئمة هذه الأنشطة مزيج من المسلمين والمسيحيين واليهود، وقد حفلت بذكرهم وعرض أنشطتهم والتنويه بمكانتهم، المراجع الإسلامية المتنوعة، دون أي تفريق ديني أو نظرة طائفية في علاقة ما بينهم.

من ذلك كتاب «المواقف» للعضد الإيجي، وكتاب «تذكرة داوود الأنطاكي» وكتاب «شذرات الذهب» لابن العماد. وقد كان من دأب العلماء والباحثين الكتابيين أن يكثروا من الاستشهاد بالقرآن في مجال بحوثهم العلمية والأدبية..

روى العضد الإيجي في كتابه المواقف من كلام العلماء (علماء الهيئة) أي علماء الفلك، في كروية الأرض وجاذبيتها، فذكر أن منهم العالم النصراني يونس بن قرّة، مستشهداً على كرويتها بقول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠]، ومستشهداً على الجاذبية التي فيها بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٥-٢٦] ومن المعلوم أن الكفت معناه في اللغة الجذب.

أما التأثر ببلاغة القرآن والعكوف على استنباط الوجوه الأدبية والبيانية من صياغته وأسلوبه، فجامع مشترك توارد عليه المسلمون وغيرهم في ظل الحضارة الإسلامية الجامعة، وإنها لَمَعْلَمةٌ تاريخية امتدت ظلالها الحضارية إلى عصرنا اليوم. تأمل في هذا الذي يكتبه فكتور سحاب، في كتابه «من يحمي المسيحيين العرب»:

«أفلا يطرب العربي المسيحي لبلاغة اللغة العربية وقوة الشعر العربي المسبوك بلغة القرآن؟.. أفلا تهزه الموسيقا

العربية الغنائية المنحدرة من التجويد القرآني؟.. أفلا تستهويه خطوط العمارة الإسلامية، أفلا تعتمل في صدره عواطفُ من نمط عربي لا شبيه لمثلها في الغرب؟.. أفلا تتحكم بعقله مفاهيم اجتماعية وعائلية مماثلة لما يتحكم بعقل المسلم العربي؟».

«إذن، فما الذي يفرقه عن المسلم سوى تلك المساحة الضئيلة التي يحتلها الدين من حياتنا. وأقصد بالدين العقيدة الأخروية والصلاة والصوم والفروض، ولا أقصد الاقتتال الطائفي الذي هو اقتتال سياسي في حقيقته»[1].

وهكذا فإن جذور الإسلام المتمثلة في معتقداته الفكرية، أثمرت الأحكام الشرعية والآداب والأخلاق السلوكية. ثم إن هذه الالتزامات المتنوعة نسجت بدورها رواق الحضارة الإسلامية الإنسانية التي مدت جسور الألفة والتعاون بين المسلمين وغيرهم في شركة عادلة متكافئة، تسعى إلى هدف إنساني واحد. وإنا لنقرأ في سطور التاريخ الإسلامي وصفاً دقيقاً لهذا الانسجام، بل لهذا التناغم القائم بين الإسلام الاعتقادي الديني وبين الإسلام الحضاري.

بل إن الإسلام الاعتقادي تجاوز هذه الوظيفة إلى وظيفة ثانية لا تقل قدسية وأهمية عن الأولى، وهي مدّ جسور

---

(١) من يحمي المسيحيين العرب، لفكتور سحاب، ص ٤٧.

الألفة والتواصل بين المسيحية واليهودية، وذلك بعد أن عملت السياسة البيزنطية في البلاد العربية عامة وفي القدس بصفة خاصة، على الإيقاع بينهما، وإشعال نيران البغضاء في علاقة ما بينهما، طوال استعمارها لهذه البلاد.

إن من الوسائل التي كانت تتخذها لذلك، تلك الأتربة والأقذار التي كانت تتراكم على الصخرة المشرفة بدفع من الرومان للنصارى إلى فعل ذلك، كيداً واستثارة لليهود الذين كانوا يُدفَعون بدورهم وبوحي من السياسة الرومانية إلى تقذير المكان الذي يعتقد المسيحيون أن عيسى بن مريم صلب فيه، وهو المكان الذي أقيمت عليه فيما بعد كنيسة القيامة.

ولما استجاب عمر بن الخطاب لدعوة أهل إيلياء، فدخل القدس وكتب كتاب الصلح المعروف بينهم وبين المسلمين، أقبل إلى الأتربة والأقذار المتراكمة فوق الصخرة، يزيحها بردائه، فأقبل من حوله من المسلمين وغيرهم يسابقونه إلى ذلك. ثم اتجه إلى حيث القمامة المتراكمة بفعل اليهود وبوحي من الرومان فوق مكان كنيسة القيامة، فباشر إزاحتها بنفسه، وما هو إلا أن أقبل كل من كانوا حوله يسابقونه إلى العمل ذاته.

وهكذا، فقد كان عمل عمر هذا بوحي من شرعة الإسلام وحكمه. وكان الهدف مدّ جسور التآلف والقربى بين

الديانتين المسيحية واليهودية. وتلك هي ثمرة الحضارة الإنسانية المثلى للإسلام الاعتقادي الديني، على حين كانت سياسة بيزنطة ترمي إلى تعميق مشاعر الكراهية والبغضاء بينهما، وتلك هي ثمرة الحضارة العدوانية الحاقدة للاستعمار الروماني[1].

❀ ❀ ❀

غير أن في الناس من دأبهم تعكير الماء الصافي للاصطياد فيه.. مسألتان اثنتان يختلقون منهما مشكلة، لمدّ غاشية من الريب على هذه الحقيقة التي لا مجال لدخول اللبس عليها.

أما المسألة الأولى، فما يقوله أحدهم: ولكنكم أنتم المسلمين تعدوننا كفاراً، وتنعتوننا بالكفر، وفي هذا ما ينسف كل هذا الذي أتعبت نفسك ببيانه.

ونقول في الكشف عن هذه المشكلة المختَلَقة: إن معنى الكفر في القاموس اللغوي وفي المصطلح الشرعي، الجحود.. ووصف الكتابيين بالجاحدين لفوارق العقيدة التي بينهم وبين المسلمين وصف لواقع. أليس النصراني جاحداً لنبوة محمد ﷺ وجاحداً لما نجزم به من أن القرآن كلام الله؟

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٥٦ وما بعدها.

وجاحداً لما نجزم به من أن سيدنا عيسى لم يصلب، بل رفعه الله إليه حياً؟

فهذا الجحود هو الكفر، والكفر هو الجحود، وإذا قال النصراني: أنا جاحد بهذه المعتقدات فهو يساوي قوله: أنا كافر بها.. بل إن كل من أنكر شيئاً فهو كافر به، وينطبق ذلك على المسلمين أيضاً. فهم كافرون بالعقائد التي يرونها باطلة مما يؤمن به الآخرون. ألا ترى كيف أمر الله نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يقول للوثنيين من قومه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤].

وقد كنت اشتركت في مؤتمر لحوار الأديان عقد قبل خمسة عشر عاماً تقريباً في إحدى ضواحي بروكسل، وفي أثناء غداء عمل ضم بعض الكرادلة، قال لي أحدهم، وهو الكردينال أرنز على ما أذكر: إنكم تنعتوننا بالكافرين.. قلت: نعم، لأنكم تحكمون على أنفسكم بذلك. ألستم تقررون جحودكم بكون القرآن كلام الله، وبأن محمداً رسول الله، وبأن سيدنا عيسى لم يصلب؟ فأنتم إذن تقررون كفركم بذلك كله.

وقلت له: إن كلمة الكفر ناظرة إلى متعلَّقها، فكل من أنكر شيئاً فهو كافر به. وينطبق هذا على المسلمين كما ينطبق على غيرهم، فالمسلمون كافرون بكل ما يتناقض مع ما جاء

به القرآن وأثبته من وحدانية الله، وعبودية عيسى بن مريم لله، وأنه ما صُلِبَ ولا قُتِل ولكن شُبّه لهم. فنحن المسلمين كافرون بكل ما يخالف ذلك.

وأما المسألة الثانية فهي الجزية التي تفرض على أهل الذمة.

ولكي نبين أن مضمون هذه المسألة، ليس في حقيقته إلا إنصافاً للكتابيين، ووضعاً لهم مع المسلمين على قدم المساواة في كل أنواع التعامل، ينبغي أن نوضح أن الكتابيين ومن في حكمهم لهم حالتان اثنتان:

(الحالة الأولى) أن يوجدوا بين ظهراني المسلمين مواطنين معهم، يشتركون معهم في العيش فوق أرض واحدة، وهي التي تنعت بدار الإسلام. إن عقد الذمة بالنسبة إلى هؤلاء لا يعني أكثر من الاتفاق معهم على أن يكونوا كمواطنيهم المسلمين في التفاعل والتجاوب مع نظام الدولة وقوانينها، وعلى أن يكونوا مثلهم في رعاية مصالحها العامة والدفاع عن حقوقها، والدفاع عن استقلالها، كلما طاف بها خطر أو توجه إليها تهديد. ثم لهم من وراء ذلك وجودهم الديني والاجتماعي الخاص بهم، ولهم حقوقهم المتنوعة على الدولة كالمسلمين سواء بسواء، من حيث الحماية والرعاية وتوفير مقومات الأمن والعيش الكريم.

ولا يقابل هذا الحق الموفور لهم وللمسلمين، على قدم المساواة، في نطاق الواجبات إلا ما هو واجب على مواطنيهم المسلمين من الوفاء للدولة والانقياد لنظامها..

ومن نظامها الشامل للجميع الوفاء بالالتزامات المالية المقررة من رسوم وضرائب، وزكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم.

غير أن الزكاة لما كانت مسؤولية دينية استوجبها الإسلام، اقتضى العدل أن تسقط عن غير المسلمين، ونظراً إلى أن الدولة مسؤولة عن رعاية الجميع وعن إنعاش الفقراء منهم وتقديم العون المادي لهم، بصفتهم مواطنين، أي بقطع النظر عن الانتماء الديني، فقد كان لابدّ من أن تتقاضى الدولة من الكتابيين ما هو بديل عن الزكاة التي تتقاضاها من المسلمين، له وصف الضريبة وليست له سمة الدين، ففرض الشارع عليهم بديلاً لا يبلغ في قدره ربع الزكاة، دون أن يتسبب عن هذا الفرق أي انتقاص لحقوقهم المادية والمعنوية على الدولة.

فما اسم هذا البديل؟ ما ينبغي أن يكون اسمه زكاة، لأن ذلك ينبئ عن حمل الكتابيين على بعض شعائر الإسلام وأحكامه، وشرعة الإسلام تأبى ذلك.. لو كان اسم الضريبة أو الرسم ذائعاً ومستعملاً في ذلك العصر، لما ترددت الدولة

آنذاك في إطلاق أحد ذينك الاسمين عليه. فكان أن أطلق عليه الاسم اللغوي القرآني المأخوذ من الإجزاء أو الجزاء وهو: الجزية.

إذن، فكلمة الجزية ليست منبثقة من اعتبار ديني، أو من وصف ذي حِطّة، وإنما هو تعبير لغوي؛ ولذا فلم يكن آنذاك ولا اليوم أي مانع من أن يستبدل بهذا الاسم، أي اسم آخر ذي دلالة لغوية على المعنى المقصود، وهو المال الذي يؤخذ من الكتابي فيجزئ عن واجب تحمل الدولة مسؤولية رعايته وحمايته والنظر في احتياجاته، واعتباره عضواً في المجتمع الإسلامي كالمسلمين سواء بسواء، ينال مثلهم سائر الحقوق التي يتطلبها مبدأ التكافل الاجتماعي.

ومن ثم فقد تم اتفاق جمهور الفقهاء على أنه ليس ثمة ما يمنع من تسمية هذا المدلول المقصود بأي اسم آخر، كالإتاوة والضريبة والرسوم، بل حتى الصدقة فيما ذهب جمهور الفقهاء بشرط رضى الكتابيين بذلك.

وقد صح أن نصارى تغلب تضايقوا من كلمة «الجزية»، وعرضوا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تؤخذ منهم الجزية تحت اسم «الصدقة» حتى وإن ضوعف قدرها بحيث تصبح مساوية للصدقة - أي الزكاة - التي تؤخذ من

المسلمين، فشاور عمر الصحابة في ذلك، فوافقوا على ما اقترحه نصارى تغلب[١].

وأخرج البيهقي في حديث طويل أن نصارى بني تغلب قالوا لعمر: خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض باسمه المتداول عندكم، يعنون الزكاة، فقال لهم عمر: هذه مفروضة على المسلمين لا عليكم، قالوا: ولكنا نقبل بذلك، وإن زيدت وبلغت القدر الذي تأخذونه من المسلمين. ففعل عمر ما طلبوا[٢].

وحصيلة القول ما قرره الفقهاء، بناء على هذا الذي ذكرت، من أن العبرة في الأحكام بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني[٣].

ولعلك تسأل: فهل يجب، إذا تحول اسم هذا المال من الجزية إلى الصدقة أو الزكاة، أن يضاعف المبلغ عن القدر المطلوب في الأصل، ليصل إلى حدّ الزكاة، أي إلى ٢,٥٪ من السيولة المملوكة و ٥ أو ١٠٪ من بقية الأموال الزكوية الظاهرة؟

---

(١) رواه الطبري في تاريخه.

(٢) رواه البيهقي في باب الجزية: ٩/ ١٨٧، وانظر تاريخ الطبري: ٤/ ١٨٩، ونصب الراية للزيلعي: ٣/ ٤٥٥.

(٣) انظر بداية المجتهد: ١/ ٣٩٢، والأحكام السلطانية للماوردي ص: ١٤٤، والمبسوط للسرخسي: ١٠/ ١١٩.

والجواب أن هذا من أحكام الإمامة، أي إن الأمر في تحديد المبلغ وزيادته عن الأصل المطلوب (وهو لا يساوي خمس الزكاة) عائد إلى ما يراه ولي أمر المسلمين[١].

❀ ❀ ❀

(الحالة الثانية) أن يكون وجود الكتابيين وتلاقيهم في بلدة أو مقاطعة خاصة بهم، بحيث لا يوجد في تلك البلدة أو البقعة إلا كتابيون أو من هم في حكمهم، ولهم استقلالهم من حيث الكينونة السياسية.

إن عقد الذمة مع هؤلاء لا يعني أكثر من تعاقد يتم بالتراضي، على ضمان اجتماعي يسري فيما بينهم وبين الدولة الإسلامية، يتم من خلاله التأكيد بالتزام الدولة الإسلامية بحمايتهم والدفاع عنهم ضد أي عدوان كما تدافع عن رعاياها المسلمين ضد أي خطر قد يتهددهم. كما يلتزم فيه الكتابيون بعدم التحالف مع أي فئة أو دولة معادية للمسلمين.

ومن المعلوم أن هذا العقد يقوم على أهم دعامة في نطاق السلوك الإسلامي، والالتزام الديني، ألا وهي دعامة الصدق في الالتزام والإخلاص في التعامل والوفاء المستمر.

---

(١) انظر الأموال لأبي عبيد: ص ٣٣.

ومن قبيل هذه الحالة الثانية العقد الذي تم بين رسول الله ﷺ، وبين أهل البحرين، وكانوا مجوساً، والعقد الذي تم بينه ﷺ وبين أهل نجران وكانوا نصارى.

فقد دخل هؤلاء وأولئك في ذمة المسلمين، طوعاً وبرغبة منهم، فالتزم المسلمون بذلك درء أي خطر يتهددهم أو يطوف بهم، وتوفير كل أسباب الأمن لهم، فيما يتعلق بحياتهم الدينية والاجتماعية وحقوقهم المادية والمعنوية. وليس على الطرف الآخر في مقابل ذلك إلا الالتزام بألا يسيئوا إلى المسلمين في شيء من معتقداتهم أو أحكام دينهم، وبألا يظاهروا أحداً على معاداتهم.

ومن المهم أن تعلم أن كل ما يخص أهل الذمة، في هذه الحالة، من أرض وثروات وممتلكات يبقى بكامله لهم، ولا يجوز أن ينال بيت مال المسلمين منهم إلا الضريبة أو ما كانوا يسمونه الجزية.

وبذلك يتضح الفرق جلياً بين عقد الذمة هذا (في الحالة الثانية) وبين ما يجري اليوم من تسلط بعض الدول الكبرى على دول صغرى أو ضعيفة، باسم الحماية أو الوصاية، أو الانتداب، وهي كلها أسماء متعددة لحقيقة واحدة، هي اقتناص حقوق الآخرين ما أمكن ذلك من حيث الأعيان ومن حيث امتداد الزمان.

وهنا قد يوجد من يسأل فيلحف بالسؤال: ولكن أليس في وجود مثل هذا الحلف بين المسلمين ودولة أخرى من غير المسلمين، عن طريق مثل هذا العقد، ما ينتقص من حرية هؤلاء الناس ويلزمهم بنوع من التبعية التي تبعث على التأبي وعلى الشعور بالمذلة؟

والجواب أن من شأن الدولة الإسلامية إذا ترسخت جذورها وسرت القوة في كيانها، أن تبعث في نفوس قادة الدول الكبرى تخوفاً منها، ومن ثم رغبة في اتخاذ كل التدابير والحيل الممكنة للقضاء عليها واقتناص حقوقها وامتصاص قدراتها.

ومن أهم الوسائل التي كانت دول البغي ولا تزال تتخذها لذلك، إثارة نوازع طائفية، بل اختلاق عداوات دينية بين المسلمين وغيرهم من الكتابيين الذين يجاورونهم أو الذين هم على مقربة منهم، وتوظيفها في توتير العلاقة بينهم وبين المسلمين، تمهيداً لاستعمالهم أداة مسخّرةً لضرب الدولة الإسلامية أو لبعث عوامل الاضطراب فيها على أقل تقدير.

ولا شك أن خير سبيل لتحصين المنطقة كلها ضد هذا العدوان على حسن العلاقة السارية بين المسلمين وجيرانهم الكتابيين، هو حماية هذه العلاقة من أي حساسية قد تختلق

بأيدٍ أجنبية يبعث على تربص أي من الطرفين بالآخر، وذلك عن طريق هذا العقد المكافئ الذي يحقق الخير للطرفين، ويستبقي حسن الجوار بينهما، ويجعل من كل منهما حارساً لأمن الآخر وحقوقه، في ندِّيّة متساوية متكافئة[١].

غير أن في الناس من ينعت العلاقة التي ينبغي أن يمارسها المسلمون تجاه الكتابيين، بقطع النظر عن أحكام الذمة، بالتسامح، ويعدّ ذلك مكرمة يجب أن يتحلى بها المسلمون تجاه غيرهم ولا سيما الكتابيين.

وأقول أولاً: إن هذا يخالف التعبير الذي استعمله البيان الإلهي في القرآن عن هذه العلاقة، وهو عبارة البر والقسط. فقد أوضح لنا بيان الله عز وجل أن معاملة المسلمين لغيرهم ينبغي أن تتصف بالبر وهو التحلي بالأخلاق الفاضلة، وبالقسط، وهو العدل في المعاملة والابتعاد عن الظلم. ولو كان في التعبير عن هذه العلاقة بالتسامح خير، لآثر البيان الإلهي التعبير به.

وأقول ثانياً: لو اتبعنا الدقة في فهم معاني الكلمات وأماكن استعمالاتها، لعلمنا أن كلمة التسامح هذه لا تنصف الإسلام والمسلمين، ولا تكرم الكتابيين.

---

(١) هذا هو الجواب، نذكره هنا باختصار، فإن أعوزك التفصيل فارجع إلى كتابي «الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه» بدءاً من الصفحة ١٢٣ فما بعد.

ذلك لأن كلمة «التسامح» هذه تعني التجاوز عن الحق، على سبيل التفضل والمسامحة. فإذا قلنا: على المسلمين أن يتسامحوا في معاملة الكتابيين، فمعنى ذلك أن على المسلمين أن يغضوا النظر عن بعض حقوقهم وأن يسامحوا الكتابيين فيما قد يصدر عنهم من تجاوزات تجاهها.

غير أن الأحكام الشرعية التي ترسم حقوق العباد السارية فيما بينهم، قائمة على أساس ميزان العدل فيما بينهم، وليس فيها ما يقوم على فرض التسامح، ذلك لأنه لا معنى لافتراض التسامح أو فرضه إلا اضطراب ميزان العدالة بين الأطراف.

ذلك لأن هذه الأحكام قائمة على حراسة الحقوق ورعايتها طبق ميزان دقيق من العدالة، فإذا وجد التسامح، أي التجاوز المفروض، في أحد الجانبين، فلا بدّ أن يوجد من جراء ذلك الإجحاف والظلم في الجانب الآخر..

أي فكل حكم من الأحكام التي شرعها الله في علاقة ما بين المسلمين والكتابيين روعي فيه تحقيق العدالة لكل من المسلمين والكتابيين، فإن أدخلت في هذه الأحكام تسامحاً لمصلحة المسلمين، كان ذلك إجحافاً وظلماً للكتابيين، وإن أدخلت فيها تسامحاً لمصلحة الكتابيين كان ذلك ظلماً للمسلمين.

نعم، إن التسامح في الأحكام التي ترسي حقوق العباد فيما بينهم، وارد ومشروع، بمعنى واحد؛ وهو أن يوصي الشارع جل جلاله الناس أن يتساهلوا ويتسامحوا، كل في حق نفسه تجاه الآخر، دون أن يشرع في ذلك أحكاماً ملزمة؛ ذلك لأن التسامح لا يتحقق معناه إلا أن يمارَسَ بشكل طوعي، فأما أن تتنزل في ذلك أحكام قسرية، فذلك هو الظلم ذاته.

ألا ترى أن الشارع عندما أرسى الأحكام الملزمة في نطاق التعامل المالي من بيع وشراء واقتراض ونحو ذلك، راعى فيه مقاطع الحقوق التي تتضمن العدالة للأطراف، بعيداً عن أي تجاوز أو تسامح. ولكنه عندما ذكّر الناس بالمبادئ الأخلاقية أوصى الجميع أن يتسامحوا ويتلاينوا، فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»[1].

إذن فمن الخطأ بمكان أن توصف الأحكام التي تنظم علاقة المسلمين بالكتابيين بالتسامح. ذلك لأنها لو قامت على ذلك، لكانت قائمة في الوقت ذاته على الظلم، لأن

---

(١) ارجع، إذا شئت تفصيل هذا البحث، إلى كتابي: الجهاد في الإسلام. ص ١٤٢ وما بعدها.

التسامح القسري في حقوق بعض العباد، لن يكون إلا عن طريق إهدار حقوقٍ لآخرين.

فهذا هو مصداق قولنا: إن نعت أحكام أهل الكتاب بالتسامح، لا ينصف الإسلام.

وأما أنه لا يكرم الكتابيين أيضاً، فلأن من حقهم أن يشمئزوا من المعاملة التي يعامَلون بها - مهما كانت كريمة - إذا ما ألبست ثوب الإحسان، وصبغت بصبغة التجاوز والرحمة.

إن الإنسان - أياً كان - مفطور على أن يكون كريماً في حق نفسه، وقد زانه الله بهذه الفطرة إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ومن أهم مستلزمات الكرامة التي هي ثمرة لتكريم الله الإنسان، أن يربأ بنفسه عن الوقوع تحت منن الإحسان ومشاعر الرحمة، وأن ينشد بدلاً عن ذلك الندِّيّة العادلة في التعامل وأصول التعايش.

ولكم بحثت عن كلمة (التسامح) هذه في أمهات كتب الفقه والتراث الإسلامي في مجال الحديث عن أحكام الإسلام وشرائعه، فلم أجد من استعملها في هذا الصدد قط..

نعم، يتكرر الحديث عن توصية الإسلام الناس بالتسامح طوعاً في مجال الحديث عن القيم والمبادئ الأخلاقية، غير أن الكلمة غير واردة، ولا معنى لها، في مجال الحديث عن الأحكام التي تتضمن بياناً لحقوق الإنسان، أي التي ترسم أصول التعايش العادل فيما بينهم.

فإن قلت: فبم نصف الأحكام التي تتجلى فيها شدة اهتمام الشارع بإنسانية الإنسان وعظيم رحمته به؟ أقول: إنها توصف بالبر والعدالة. فذلك هو الوصف المطابق لحقيقتها وواقعها. والعدالة حق يناله الجميع، على درجة واحدة، دون أن تسري خلال ذلك منة وتفضل من طرف على طرف[1].

إذن، فقد علمنا أن الإسلام الاعتقادي (الديني) أثمر الإسلام الحضاري الذي احتضن تركيبة المجتمع المكون من المسلمين وغيرهم، على أساس من المساواة والندية الحقيقية ما بين المسلمين وغيرهم.

ولكن فما هي الضمانة التي تجعل الإسلام الحضاري ينبثق من الإسلام الاعتقادي، والتي جعلت من هذه الحضارة ترجمة للعلاقات الإنسانية المثلى؟ وما السبب الذي جعل الحضارة البيزنطية وما تسلسل منها إلى هذا اليوم، ترجمة

---

(١) ارجع إذا شئت تفصيل هذا البحث إلى كتابي: الجهاد في الإسلام، ص ١٤٢ وما بعدها.

للمشاعر ثم للسلوكات العدوانية الحاقدة؟.. وبعبارة أخرى: ما الضمانة التي تجعل الحضارة الإسلامية تثمر السلم والأمان، وما السبب الذي جعل الحضارة البيزنطية وما تسلسل منها إلى اليوم تثمر الحروب والبغضاء؟

والجواب أن الضمانة التي جعلت الحضارة الإسلامية في تاريخنا الأغر، ترجمة للعلاقات الإنسانية المثلى، هي ما كان يحرص عليه قادة المسلمين من إخضاع السياسة لسلطان الدين، أي لسلطان الإسلام.

كان إخلاصهم للدين.. ومن ثم فقد كانت السياسة في حياتهم خادماً للدين. ونظراً إلى أن الدين الحق إنما أرسل به الرسل والأنبياء لإدخال الأسرة الإنسانية كافة في السلم، ومن ثم فقد كان الدين ولا يزال الساحةَ القدسيةَ التي تتحرك فيها الإنسانية، سواء على الصعيد الفردي أم الاجتماعي، فقد كان من الضروري أن تصبح السياسة في تاريخنا الإسلامي دعماً للعلاقات الإنسانية لا وبالاً عليها.

وأما السبب الذي جعل الحضارة البيزنطية، وما تسلسل منها إلى هذا اليوم، ترجمة للمشاعر ومن ثم للسلوكات العدوانية الحاقدة، فهو أن الدين كان ولا يزال في رؤية الحضارة الغربية، قديماً وحديثاً، خادماً للسياسة، ووقوداً لنيرانها.. أي إنّ السياسة في تاريخ الحضارة الغربية، كانت

ولا تزال هي القائد والمهيمن. والدين أياً كان ينبغي أن يكون مجنداً لحسابها ولمصلحتها. وقد دلت وقائع التاريخ وأكدت أن الدين لم يُستخدم يوماً لمأرب سياسي، إلا عاد ذلك بالوبال على الدين وأصحابه وبالوبال على السلم وعلى الإنسانية بجميع حقوقها.

إن الحصن الذي يحمي القيم الإنسانية وحقوق الإنسان، هو الدين الحق، فإذا سيق الدين ليكون واحداً من سماسرة السياسة وخدامها، خرجت القيم والحقوق الإنسانية بذلك من حصنها، لتصبح في العراء، تعصف بها رياح السياسة وتجعلها أثراً بعد عين.

وهذا ما فعلته الحضارة الغربية بالأمس، وإنها لماضية في العمل ذاته اليوم.

والصور المأساوية لهذه الحقيقة كثيرة، وفي جعبة التاريخ البعيد والقريب من ذلك ما لا يحصى. ولنكتف من ذلك، في هذه العجالة، بالصورة التالية:

من المعلوم أن الدولة البيزنطية تبنت المسيحية ديناً رسمياً لها، غير أنها اختارت منه المذهب الذي وافق هوى في نفسها وانسجاماً مع سياستها.. بعد أن عدّلت فيه وغيّرت منه ما طاب لها ذلك.

وكان المفروض أن تقف هذه الدولة، عندئذ، من المذاهب المسيحية الأخرى، موقف الإسلام من المسيحية على أقل تقدير، فتتعايش معها وتدافع عنها، وتحميها من عوامل الاضطهاد.

ولكن بيزنطة أصرت على اختفاء كل المذاهب المسيحية الأخرى التي تخالف مذهبها الرَّسمي، بل إنها عدّت الخروج على مذهبها الرسمي هذا خروجاً على وحدتها السياسية. ومن ثم أخذت تسعى سعيها ابتغاء إنهاء وجود العقائد المسيحية المغايرة للعقيدة الرسمية، مرة عن طريق المجامع التي كان يعقدها الإمبراطور ويحضرها بنفسه، ومرة بالتصفية الجسدية وملاحقة الرهبان. وفي مجزرة بيزنطية واحدة، قتلت الدولة - فيما يرويه فكتور سحاب - مئتي ألف قبطي من «اليعاقبة». وعندما فتح العرب المسلمون مصر، كان الإكليروس القبطي مختبئاً في الصحارى هرباً من التصفية.

إذن، فالمسيحية (نموذجاً لغير الديانة الإسلامية) ظلت قديما وحديثا، في خطر على وجودها من المسيحية ذاتها!.. والسبب أن العوامل السياسية في كل مرة، كانت تطغى على المشاعر الدينية وأخلاقياتها. ولذلك فقد ظل التاريخ يرينا من مظاهر عدوان المسيحية السياسية على المسيحية الدينية الشيء الكثير.

وهنا تزداد الظاهرة التي يتميز بها الإسلام، جلاء وتألقاً:

إن عقد الذمة (من حيث هو نظام إسلامي أرسته الشريعة الإسلامية لحماية التعايش بل التآلف العادل بين المسلمين والكتابيين) إنما أقيم ضمانة لتغلب سلطان الدين وأخلاقه الإنسانية على سلطان السياسة ورعوناتها الوحشية. ومن ثم فإن عقد الذمة روعي فيه أن يكون ضمانة لطمأنينة الكتابيين وأمنهم، ضدّ أي عدوان على دينهم أو حقوقهم.

وإن في سلسلة الوقائع التاريخية، بدءاً من فجر الدولة الإسلامية في المدينة المنورة إلى أواسط عصر الخلافة العثمانية (حيث تقلص بعد ذلك الحكم الإسلامي، وبدأت سلطة القوانين الوضعية تتسرب لتحل محله) ما يبرز هذه الحقيقة بأوضح صورة.

إن الوثيقة التي اكتتبها رسول الله ﷺ، إنما كانت أساساً للتعايش المتآلف بين المسلمين واليهود الذين كانوا يساكنونهم في المدينة المنورة.

وتنص هذه الوثيقة في أحد بنودها على هذا المبدأ فتقول:

«إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته».

ويقول البند الذي يليه: «إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة».

هذا ما حققته الشريعة الإسلامية في سبيل نسج رواق السلم العالمي على الأسرة الإنسانية جمعاء، وذلك ما فعلته سلطة الدولة البيزنطية على المناطق العربية التي ظلت ردحاً من الزمن ترزح تحت نير عسفها. كانت السياسة عندنا خادمة لسلطان الإسلام وحكمه.. وكان الدين عندهم هو الخادم لسلطان السياسة وعسفها.

والحضارة الغربية ماضية اليوم في النهج ذاته الذي كانت تسير عليه الإمبراطورية الرومانية بالأمس.

إن مقاليد السياسة الغربية اليوم، بيد أرباب معامل الأسلحة، والشركات التجارية العملاقة، وشركات الأدوية، في أمريكة.. وأصحاب النفوذ في هذه المعامل والشركات، هم قادة الصهيونية العالمية.. والسياسة المرسومة للصهيونية العالمية، هي فرض المزيد من الهيمنة على ينابيع الثروة والمصادر الاقتصادية في العالم، والعمل على شل سائر الأنشطة المعاكسة لذلك.

والأداة التقليدية الأولى التي كانت اليهودية، ومن ثم الصهيونية العالمية، تستعين بها لتحقيق هيمنتها السياسية

هذه، هي إيقاد نيران الحروب، والعمل على إبقائها متّقدة أطول مدة ممكنة. أما أداتها الثانية فهي تسخير الأديان بمهارة فائقة، لتحقيق هذا الذي تسعى إليه على مستوى العالم كله.

إن إسرائيل بمقدار ما تعلن عن ارتباطاتها الدينية والتلمودية، وتستهدي بأفكار حاخاماتها، تقيم دولتها الدعيّة على النظام العلماني!.. ولعل في الناس من لا يفهم معنى هذه المفارقة. غير أن الأمر خاضع في حقيقته لجعل الدين أياً كان، خادماً للسياسة، أي للسياسة الصهيونية، فلا تناقض ولا مفارقة في الأمر.

وإن البيت الأبيض في أمريكة، يخضع في سياسته للمسيِّر الأول والأخير فيها، ألا وهو معامل الأسلحة ومجموعة الشركات العملاقة فيها.. وهذا المسير يخضع بدوره كما قلنا، لمسير آخر إليه تعود الكلمة النافذة، هو الصهيونية العالمية.

ومن أخطر الأدوات التي نجحت الصهيونية في تسخيرها لأهدافها السياسية، تيار البروتستانت الذي تحول من المسيحية الإنجيلية المتعصبة إلى اليهودية التلمودية الحاقدة على العالم كله.

ومن أعجب الأمور أن أمريكة، من حيث هي حكومة وشعب، لا مصلحة لها في شيء من هذه السلسلة التي تبدأ

حلقاتها بسلطة مجموعة الشركات العملاقة بما فيها قادة معامل الأسلحة، وتصب أخيراً في سلطة البروتستانت المتهودة.

ولكن المشكل أن البيت الأبيض ذاته، قد تحول اليوم فأصبح حلقة في هذه السلسلة التي تدور على مصلحة الصهيونية العالمية؛ وهو تحالف خطير يحمل في داخله بذور القضاء على بقايا الوجود الحضاري لأمريكة.

وأعجب من هذا الذي ذكرت أن الصهيونية التي شهد العالم كله أن دأبها أن تنفخ في نيران الحروب، تستوقدها إن لم تكن موجودة، وتزيد من أوارها عندما تكون مشتعلة، لتمرر من خلال نيرانها مصالحها الخاصة بها، أقول: إن أعجب من هذا الذي ذكرت أن تكون الصهيونية هذه في مركز الحكم على الحضارة الإسلامية، وأن تنظر إلى تاريخها القديم والجديد بالعين الحولاء، فتتهمها بمعاداة السلام العالمي، مؤكدة للعالم أنها هي - أي الصهيونية - التي تسهر على السلام في العالم، وتبذل الرخيص والغالي في سبيله.

❁ ❁ ❁

ثم إنه مما بات معلوماً لسائر الدوائر العالمية، وأجهزة المراقبة المتنوعة، أن إسرائيل هي الشكل المتجسد

للصهيونية العالمية، وهي الحنظلة التي ولدت من شجرتها. ومن ثم فإن إسرائيل، لا البيت الأبيض، هي التي تمسك بيدها مقود السياسة في العالم، وهي التي تبعث إلى من تشاء رسائل التهديد والوعيد والقطيعة، وتمدّ إلى من تشاء جسور التآلف والتعاون (إلى حين)، وهي التي تنعت من تشاء بسمة الإرهاب وتشهد لمن تشاء بالإنسانية والديمقراطية وسماع الكلمة.. وليس البيت الأبيض إلا الختم والتوقيع المستعملين لخطاباتها وأحكامها!..

يكون الدين في حكمها ذا روحانية مقدسة عندما تنجح إسرائيل في تسخيره لمصالحها وسياستها. ويتحول إلى حركة إرهابية عندما يتأبى سلطانه على محاولاتها.

فالنصرانية المتهودة التي تظل تستوقد نيران الحروب في كل بقعة من العالم الإسلامي استعجالاً لظهور مسيحها ذي العين الواحدة، وتمهيداً لاستلامه قيادة الحكم في العالم، هذه النصرانية، في قرارها، ديانة إنسانية ديمقراطية مسالمة!.. والإسلام الذي تبين لك كيف ينهض على دعائم العدل، ويمدّ في كل بقعة يصل إليها، رواق السلم والأمن، ديانة إرهابية متطرفة!!.. وعلى أمريكة، بحكم نافذ وقاهر من سيدتها (إسرائيل)، أن تخضع لهذه المصطلحات المنكسة، وأن تتعامل على أساسها مع العالم، شاءت أم أبت!..

هذا التجني العجيب على الحقائق، وهذا الإرهاب النيراني الذي يزرع في بقاع العالم ألغام الحروب، ويسيل فيها أنهار الدماء البريئة، وهذا الاستخفاف الساخر بالعقول البشرية، كل ذلك نتيجة لاستخدام الدين، أياً كان، للرعونات السياسية. وهذا ما تفعله الصهيونية العالمية. وهو ما تنقاد له أمريكة، تنفيذاً لالتزام لا خيار لها فيه.

إن وقوع أمريكة في فخ السياسة الصهيونية الماضية في العمل على إلهاب العالم بنيران الحروب، كي يتاح لها أن تنفذ خططها الإجرامية من وراء دخانها، سيحملها في الأيام القادمة خسارة نوعية فادحة.

إن إسرائيل تجني من سياسة الصهيونية العالمية المغانم، في حين أن أمريكة لا تجني من تنفيذها لهذه السياسة إلا المغارم. وليس الانهيار الاقتصادي المتزايد يوماً بعد يوم، والذي يتمركز اليوم في الولايات المتحدة، إلا واحدة في سلسلة هذه المغارم. ولسوف تثبت الأيام أن إسرائيل ستكون في منجاة من هذا الاختناق الاقتصادي الذي هو نتيجة مباشرة لتابعية السياسة الأمريكية لسلطان الصهيونية القاهر.

ولعل ذاكرة البيت الأبيض، والشعب الأمريكي، لا تنسى الخطاب الذي ألقاه بنيامين فرانكلين، في لجنة وضع

الدستور الأمريكي، عام ١٧٨٩، وحذر فيه هذه اللجنة خاصة والأمريكان عامة من الخطر اليهودي على أمريكة وعلى العالم. وها أنا ذا أعيد إلى الذاكرة نص خطابه هذا، ليعود فيذكره من كان قد نسيه، وليطلع عليه ويعتبر به من لم يكن على علم به إلى اليوم.

يقول فرانكلين: «هناك خطر يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك الخطر اليهودي، فما من مكان حلَّ فيه اليهود - أيها السادة - إلا أفسدوا فيه الأخلاق، وحطّوا من مستوى الأمان والذمة التجارية. فهم انعزاليون دائماً، ولا يندمجون بسواهم، وبسبب شعورهم بالاضطهاد، فهم يسعون دائماً إلى خنق الشعوب مالياً، كما فعلوا في البرتغال وإسبانية.. وهم ما زالوا منذ عام ١٧٠٠ يندبون مصيرهم.

- ولكن أيها السادة، لو أعطاهم العالم فلسطين التي يطلبونها، وممتلكات أخرى، فإنهم سرعان ما يجدون سبباً لعودة البكاء على المصير!.. لماذا؟..لأنهم هامات (يقصد بهذه الكلمة أجداثاً خرجت من المقبرة لتمتص دماء الآخرين) لا يستطيعون العيش ضمن ذواتهم، بل يعيشون على حساب المسيحيين وغيرهم، ممن لا ينتمون إلى عرقهم. فإذا لم يطردوا من الولايات المتحدة، بنص الدستور، فإنهم

في غضون مئة عام، سيتدفقون إلى البلاد بأعداد كبيرة تمكنهم من السيطرة علينا وتدميرنا وتدمير الحكم الذي بذلنا نحن الأمريكيين دمنا وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا الشخصية من أجله.

- إذا لم نطرد اليهود، فسوف يصبح أولادنا، في غضون مئتي عام، مجرد عمال في الحقول، لكي يطعموا اليهود، في حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم.

- أحذركم أيها السادة، إن لم تطردوا اليهود إلى الأبد، فإن أولادكم وأحفادكم سوف يلعنونكم في قبوركم. إن مُثُل اليهود ليست مُثُلَ الأمريكيين، ولن تكون كذلك حتى لو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال. فالنّمر لا يغير جلده الأرقط. اليهود خطر على هذه الأرض، إن سُمح لهم بدخولها. إنهم سيقضون على مؤسساتكم».

إذن، فقد خانت أمريكة نفسها، عندما ألقت بنصيحة فرانكلين، وراءها ظهرياً، وحالفت لا اليهودية فقط، بل حالفت أيضاً اليهودية المتصهينة، خدمة لها وتحقيقاً لمأربها، وزجّاً للشعب الأمريكي بين ماضغي الشقاء، وفي أقبية العمالة للسيد اليهودي.

إن نبوءة فرانكلين ماضية في التحقق، يشهد بذلك امتلاك اليهود لكل من السلطة المالية والسياسية والعسكرية في أمريكة.

إن هذا الأمر عجيب حقاً!!..

ولكن الأعجب منه محالفة كثير من الدول العربية لهذا الذي جعل من نفسه خادماً لليهودية المتصهينة، إنه لعجيب حقاً أن تجد في هذه الدول من قرر أن يجعل من نفسه خادماً لخادم اليهودية المتصهينة.. إنها ليست من نوع المهانة التي تقف عند حدود محالفة السيد ذاته مباشرة، بل تأبى إلا أن تتجاوزها إلى أن تقف في عتبة الطريق فتحالف الخادم المطيع.

ومن ذيول هذا التحالف العجيب ما يفعله كثير من العرب المسلمين، على مستوى القادة المسؤولين، وعلى مستوى الباحثين والمفكرين، من التبرُّء من مقومات الذاتية الإسلامية، وتجاهلها والإنكار لها، في سبيل أن تصدق الصهيونية العالمية أنهم ليسوا إرهابيين، كما يزعمون ويتهمون. وتلك هي الغاية التي من أجلها تمضي إسرائيل وبنيتها التحتية (الصهيونية) في اتهام العرب والمسلمين بالإرهاب.

إن موقف هؤلاء الذين دأبهم (للتخلص من هذه التهمة) أن ينفضوا تاريخهم وعقولهم وشريعتهم الربانية من كل ما يراه الصهاينة إرهاباً، كموقف من يملك كنزاً من المال في داره، فأقبل إليه من يطمع في كنزه المالي هذا، يتهمه بألغام وأسلحة مخبوءة في أرض داره، وأنه إنما يبيِّت شراً من وراء استحصالها وإخفائها في أرضه، وأنه لذلك عنصر إرهاب وخطر على المنطقة كلها. فكان من سوء حظ صاحب الدار أن جمع في كيانه بين خسّتي الغباء والجبن معاً، فأصرّ الغبي الجبان إصراره على أن أرضه خالية من أي دفين، وأن ظاهرها كباطنها، تربة صافية لا مزيج فيها ولا تسرب من شيء إليها، وراح يعيد ويكرر ويؤكد براءة أرضه من كل داخل أو متسرب غريب، إلى أن امتلك ذلك الطامع المخادع الحجة القانونية المستندة إلى أقوال هذا الغبي وتأكيداته المتكررة، لاستلاب كنزه الدفين المتسرب إلى داخل أرضه، بل كانت لصوصيته تلك عوناً قدّمه لصاحب الدار وشاهداً لصدق كلامه.

ألا فليعلم العالم كله بما فيه الخادم الأمريكي وخدم هذا الخادم، أن في مكنون شريعتنا الإسلامية وتراثنا التاريخي، قوةً ضاربةً تتربص بكل من يريد سوءاً بكينونتنا الذاتية، أو وجودنا الحضاري أو أي من حقوقنا المادية والمعنوية.

وما كنا لننتظر من قوى الشر أن تحكم لنا بمشروعية هذه القوة الضاربة أو عدم مشروعيتها.

إن السلم العالمي الذي مدّ الإسلام رواقه على كل البقاع التي وصل إليها، لم يتحقق ولم تترسخ دعائمه إلا بهذه القوة الضاربة التي وقفت في وجوه كل القراصنة من تجار الحروب. وإن تاريخهم لمعروف، وإن دور الإسلام في دحرهم انتصاراً للسلام الحقيقي الذي ينبغي أن يسود العالم كله معروف ومحفوظ.

إن شريعتنا الإسلامية تأمرنا بألا نستعمل هذه القوة إلا دفعاً لظلم واقع أو متوقع، وانتصاراً لمشروع السلام العالمي الذي لا ينهض بناؤه إلا على دعائم الأخلاق، ولا تتحقق الأخلاق الإنسانية إلا عندما تكون ثمرة للإيمان بالله، والخوف من حسابه وعقابه.

فلتسم اليهودية المتصهينة هذه القوة إرهاباً، أو فلتخترع لها أي اسم آخر يطيب لها، فإننا، على كل حال، لا نتعامل بالألفاظ والأسماء، وإنما نتعامل بالمسميات.

وإنه لمسمى مقدس نعتز به ولا نتنازل عنه، تلك القوة التي ملكتنا إياها شريعة السماء.

قوانا هذه أثمرت على مرِّ التاريخ السلام العادل الذي يشهد به العالم كله.. وقوى الصهيونية وخدمها لم تثمر

إلا سلسلة الحروب والدمار، تشهد بذلك الوقائع المرئية، والدماء البريئة الزكية، تشهد بذلك الأعضاء البشرية التي تتاجر بها إسرائيل، قطعَ غيارٍ، تصدِّرها إلى العالم، تقتطعها من أولئك الذين يقبعون في سجونها، ممن انقطعت أخبارهم عن أهليهم.

وقد ذكر آخر ما وصلنا من الأخبار، أنه قبض في ولاية نيوجرسي بأمريكة، على أناس كانوا يشترون أعضاء بشرية واردة من إسرائيل، بمبلغ عشرة آلاف دولار أمريكي للعضو الواحد، ومن ثم يباع ذلك العضو بمئة وخمسين ألف دولار، وهكذا غدت أعضاء السجناء الفلسطينيين في إسرائيل سلعاً تجارية تصدر إلى أمريكة ابتغاء الربح الوفير..

ومع كل هذا الإجرام الذي تقشعر منه الهمجية، فإن الضالعين فيه يصرون على أنهم دعاة الخير والسلام، وأن الإسلام هو مصدر التطرف والإرهاب، ومن ثم فإن المسلمين هم رسل التطرف والإرهاب!!..

إذن، فليقلع إخوان لنا، لم يشبعوا بعد من الإعلان المتكرر عن عدم علاقتهم بالإرهاب، وعن اتصافهم الدائم للناس جميعاً بكل اشتقاقات مادة السماحة والمسامحة والسماح، وكل اشتقاقات مادة السلام والمسالمة والاستسلام، أقول: فليقلع هؤلاء الإخوة عن هذا الكلام

المكرور الذي ضجت منه الآذان، وأشبعت منه النفوس، وكاد يفقدنا كنز قوتنا، وجوهر شخصيتنا، ويحيلنا إلى مثل حال من ينغض الرأس ويُثْني الظهر وما دونه لفعل الفاعلين وكيد العابثين.

لقد اهترأت كلمة «الإرهاب» التي نحارَبُ بها، في أفواه قوى الشر المتربصة بنا، فلا نجعلنَّها مُضْغَةً مهترِئة في أفواهنا، ندافع بها عن أنفسنا، ونجعل منها الدريئة الوحيدة، التي نردّ بها غائلة العدوان الذي يتربص بنا.

وبعد فإن حصيلة القول، أن الدين في جوهره (وليس ثمة في الحقيقة إلا دين واحد) هو مصدر السلام العالمي، وهو الحصن الذي يقي المجتمعات من الظلم وأسبابه.

ولكن الشرط الذي لا بد منه لذلك، أن تسير السياسة في ركاب الدين، لا أن يُسيّر الدين في ركاب السياسة. ولقد كان هذا الشرط موفوراً طوال التاريخ الإسلامي الأغرّ، الذي نسج للعالم حضارته الإنسانية المثلى.

واليوم، وقد حاولت اليهودية المتصهينة أن تبعد الدين عن طريقها المرسوم إلى افتراسها لإنسانية الإنسان، بواسطة القضاء عليه، فلم يتأت لها ذلك، فقد رضيت بالبديل، وهو

جرّ الدين أياً كان وحيثما وجد إلى فلك السياسة اليهودية، بحيث يدور الدين في فلكها، وبحيث يكون خادماً أميناً لها.

وقد نجحت اليهودية في هذا الذي ابتغته إلى حدٍّ كبير.

إن وجود النصرانية المتهودة في أمريكة، من مظاهر هذا النجاح..

وإن التوجه السياسي المتلون بلون الصهيونية في الفاتيكان من مظاهر هذا النجاح..

وإن القيادات العربية والإسلامية التي ذهبت في تعبيد الطريق أمام سياسة إسرائيل، إلى حدّ طيِّ الآيات القرآنية التي تتعرض بالنقد لبني إسرائيل، عن القراءة في الإذاعات والمحافل، وإلى حدّ المنع من الخوض في (السامية) على ملأ من الناس، من أبرز مظاهر هذا النجاح.

غير أن علينا أن نعلم - مع هذا كله - أن العالم كله يشكو، سراً أو جهراً، من السحب الداكنة للحروب التي دأبت الصهيونية العالمية، على اختلاق أنواع شتى من الوسائل الممهدة لها، كما يقول السياسي والاقتصادي الأمريكي المعروف، لندون لاروش.. بل إن الشعوب الغربية أجمع أصبحت تملك الوثائق الناطقة بأن إسرائيل هي المسؤولة الأولى والأخيرة عن الإرهاب الذي يسوَّق في

العالم. تبين ذلك من نتيجة الاستفتاء الذي تم في فرنسة منذ أربعة أعوام تقريباً، عن أول دولة إرهابية في العالم، حيث أُعْلِنَت النتيجة القائلة بأن إسرائيل هي الدولة الإرهابية الأولى في العالم.

من خلال هذا الواقع الذي يقف العالم كله شاهداً عليه، يبرز دور الإسلام الذي يمثل مركبة النجاة، من سحب الحرب الداكنة التي تملأ إسرائيل بها الآفاق.

إن العالم الغربي، كله أو جلّه، أصبح يدرك أن الإسلام هو دين السلام، ومن ثم فهو طوق النجاة من أمواج الإرهاب.. والصراع الخفي القائم اليوم في الغرب بين سلطان الحياة المادية على النفس، وسلطان الظمأ المجهول مصدرُه على الروح، سينتهي قريباً بالاستجابة للظمأ الذي لن يبقى مجهول المصدر. وسينحسر سلطان المادة عن النفس، وستتلاقى جموع الغربيين على المورد العذب الذي ينجدهم بالريّ المنعش، بعد الظمأ المحرق. إنه مورد الإسلام، دين العدل والسلام، ذاك الذي يكرم الإنسان بمتعة النفس ونشوة الروح، يجمع بينهما في مزيج معتدل ووسطية مسعدة.

قد يكون في الناس من يفسر كلامي هذا بالآمال المعلقة على سياسة عادلة جديدة يجدّ ويصدق في اتخاذها الرئيس الجديد للولايات المتحدة..

كان هذا التفسير قريباً بل ممكناً، لو أن الولايات المتحدة كان لها دور السيادة في السياسة التي تتخذها. غير أن مما هو معلوم حتى للتلامذة الصغار في مدارسهم، أن الولايات المتحدة كانت ولا تزال الخادم الأمين لما تقرره إسرائيل، ومن ثم لما تقرره الصهيونية العالمية.

والرئيس الجديد فيها لا يملك - مهما حاول أن يذكرنا باسم أبيه وجده وأصله - إلا أن يقوم بدور الخادم الأمين لآمال إسرائيل وقراراتها، أو أن ينتظر المآل الحزين الذي صار إليه السابقون من أمثاله.

إن دفّة الحكم في الولايات المتحدة بيد إسرائيل.. وما البيت الأبيض بكل من فيه، وما المؤسسات والمنظمات بكل ما يتراءى لها من سلطة ونفوذ، إلا خدم وجنود للأحكام التي تشير إليهم بها إسرائيل.

إذن ما هي الآمال التي أعلق عليها هذه النبوءة التي أختم بها هذا البحث؟..

إنه التوجه العارم في الغرب عامة وفي الولايات المتحدة خاصة، إلى الإسلام.. إن هذا هو الخطر الوحيد الذي لم تستطع إسرائيل إلى الآن التحكم به أو القضاء عليه. وأنَّى لها ذلك وهي تعلم أن هذا التوجه المتزايد إلى الإسلام، إنما هو ترجمة دقيقة لضيق الشارع الأوربي والأمريكي ذرعاً بطغيان

إسرائيل وبما هي ماضية فيه من بسط المزيد من نفوذها وحاكميتها على الوجود الأوربي والأمريكي.

هذا.. على أن أعداد الذين يدخلون الإسلام سراً يفوق أعداد الذين يستعلنون بإسلامهم، إنْ في أوربة أو أمريكة.. وأنت لا تدري ما الوظائف التي يشغلها هؤلاء المسلمون المجهولون، بل ما هي المراكز الحساسة التي يتبوؤونها.

أما إن الفرج لا ينبثق عادة إلا من الشدة، وإن الحرية لا تشرق إلا من ظلام الاستبداد، وإن الكثير من حاخامات إسرائيل ليعلمون هذا الذي أقول.

إن من وراء السياسة التي تنسجها الصهيونية العالمية وإسرائيل، وتحاول جاهدة أن تقود العالم كله على أساسها، سلطة ربانية تتحكم بهذه السياسة، بل تتحكم بالأرضية العامة التي تحتضن هذه السياسة وأربابها.

أرأيت إلى الناس الذين يتحركون فوق باخرة كبيرة عملاقة، ذات الشمال أو اليمين، عابثين لاهين، إن حركاتهم وتوجهاتهم كلها مستوعَبَةٌ ومستهلكة، ضمن سلطان الحركة الكلية الكبرى التي تتجه بها السفينة وتمخر البحر بها إلى الشاطئ المقصود.

وربما أدركت أعين الناظرين حركة الأشخاص الذاهبين والآيبين على سطحها، دون أن تدرك الحركة

الكبرى للسفينة العملاقة التي تحملهم على ظهرها.. ولكن فلتعلم أنها سنة الحقيقة العلمية التي يقاد الكون كله على أساسها: بمقدار ما يضؤل الجرم المتحرك تظهر حركته وتلتقطها العين الباصرة، وبمقدار ما يكبر ويعظم الجرم المتحرك تختفي حركته ويصعب على العين المجردة التقاطها.

سياسة الناس الذين يتحركون فوق هذه الأرض بيّنة ومكشوفة، أما سياسة[1] ذاك الذي يدير الكون كله فخفية يدركها العقل المتبصر، ولا تلتقطها العين الناظرة.

ألم تقف على هذه الحقيقة أمام مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

❁ ❁ ❁

وبعد، فتأمل: ما أكبر الفرق في هذا الباب بين من يظل يستوقد النار للحرب، وبين من يطفئها انتصاراً للسلام.

---

(١) التعبير بالسياسة التي ننسبها إلى الله هنا، من قبيل المشاكلة، التي يدخل فيها قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٤].

إن كل ما سبق تفصيله وبيانه، مطوي ومقرر في هذا الذي يخبر عنه بيان الله عز وجل: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

صدق الله جل جلاله.. وكذب الدجالون الممخرقون تجار الحروب.

الديانات الإبراهيمية الثلاث

تحولات تاريخية - تحديات الوقت الحاضر

الدكتور : هانز كينغ

ترجمة : حسن صقر

الإسلام ديانة مختلف عليها

مقدمة

تبدو الأديان ذات الأصل الصيني - الكونفوشيوسية والداوية - بالنسبة إلى معظم الأوربيين دائماً بعيدة جداً وغريبة «الشرق الأقصى»، وهي غير خطيرة بأي حال.

أما الديانات ذات الأصل الهندي - الهندوسية والبوذية - فتبدو أكثر قرباً، كما تبدو للبعض ودية، لأنها في الغالب مسالمة وليس لها تاريخ عدائي أو صراعات حدود مشتركة لزمن طويل مع البلدان المسيحية، فإنها لا تشكل - في الغالب - خطراً مع أن الأصولية الهندوسية العنيفة قد تنامت في القرن العشرين في الهند.

غير أن الديانات ذات الأصل الشرق أوسطي - اليهودية والمسيحية والإسلام - تبدو قريبة فيما بينها، كما أنها متشابهة بالمقارنة مع منظومات التوجهات الدينية السابقة في كثير من المسائل. علماً بأنه لم توجد ولا توجد صراعات أو نزاعات بين الأديان الأخرى مثلما حصل بين الأديان

التوحيدية الثلاثة المعتمدة على الأنبياء، والتي يبدو أنها تتميز بعدوانية خاصة، وبالتفكير بنموذج العدو - الصديق. والسؤال الآن: كيف الأمر فيما يتعلق بالإسلام؟

الإسلام، الذي يشترك مع المسيحية بآلاف الكيلومترات من الحدود يُنظر إليه في الغرب بوصفه خطراً حقيقياً متنامياً. والدليل على ذلك أن العالِم السياسي صموئيل هنتنغتون يؤكد في عام ١٩٩٣ بصورة صريحة تماماً بأن «الحدود الإسلامية دامية». هل الحدود المسيحية غير ذلك؟ وهكذا نتجت تصورات عن الإسلام من حيث أنه خصم، أو عدو، وهذه التصورات جاهزة للاستخدام من قبل الإيديولوجيين (في أمريكة وأماكن أخرى)، والذين يحتاجون من أجل سياستهم العسكرية الإمبريالية وطموحاتهم القائمة على السيطرة، بالضرورة إلى عدو، ومن هنا نشأت صورة الإسلام بوصفه عدواً.

صورة الإسلام بوصفه عدواً

مع أن الظاهرة التي تشكل المرجعية موجودة منذ بدء الفكر البشري؛ فلم يوجد مصطلح «صورة العدو» إلا في القواميس الحديثة، وقد ظهرت في مرحلة هدوء الصراع بين الغرب والشرق، كما أصبحت متداولة كثيراً مع حرب

الخليج الثانية. ومنذ اقتراف الجريمة ضد الإنسانية المتمثلة في اعتداء ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ من قبل متعصبين حاقدين والخطر يقدم، بأن السياسة العالمية تقررها حقاً صورة الإسلام بوصفه عدواً، والتي تقابلها من الجانب الإسلامي - بكل بساطة - صورة الغرب بوصفه عدواً.

عن استخدام صورة العدو

«تمثل صورة العدو في قليل أو كثير كلية مكونة من الإدراكات والتصورات والمشاعر، التي تتحد على مبدأ العداوة لإنسان، أو مجموعة من الناس، أو شعوب أو دول» (هـ. نيكلاس). لا تنشأ صورة العدو هذه من الأفكار والأحكام، مثلما يبين المفهوم الإنكليزي «concept of enemy»، وهي تواجه دائماً بصورة الصديق (في الغالب من المجموعة ذاتها)، وإنما تنشأ أيضاً من الإدراكات والمشاعر والأحكام المسبقة، ولهذا السبب فإن وسائل الإعلام البصرية مهمة بصورة خاصة.

إن صورة العدو - كانت الشيوعية في الغرب سابقاً والآن الإسلام - ذات نفع كبير بالنسبة إلى كثيرين، ولها وظائف متعددة على المستوى الفردي - السيكولوجي، وعلى المستوى السياسي - الاجتماعي، مثلما يمكن ملاحظته

بوصفه مثالاً ناصعاً في (الحرب ضد الإرهاب)، التي تقررها طموحات السيطرة في الولايات المتحدة الأمريكية المدعومة بفعالية قصوى من قبل وسائل إعلام الصورة:

- صورة العدو تخفف عن كاهلنا: لسنا «نحن» من يحمل الذنب (إن كنا أمريكيين أو أوربيين أو كان أصدقاؤنا الأوربيون والإسرائيليون) كلا، وإنما العدو الإسلام. بإمكاننا أن ندفع دونما أي خطر إلى الخارج مشاعر الذنب الآخذة بخناقنا ومشاعر الاحتقار، وكذلك عدوانيتنا وإحباطاتنا ونسقطها عليه. من هنا فإن صور العدو تضمن لنا فكرة كبش الفداء.

- صورة العدو ترسِّخ: إذا كنا «نحن في الغرب» غير موحدين في كثير من المواقف، فإننا مدعوون إلى العمل ضد العدو، ضد «دولة الشر» و«محور الشر». إن عدواً مشتركاً يجب أن يقوِّي التماسك، الناتو، الصداقة العابرة للأطلسي. والعدو يتيح لنا أن نقف معاً موحدين، نقصي من يمارسون النقد علينا ونستبعد الخارجين عن طوعنا.

صورة العدو تتطلب فكر الكتلة.

- صورة العدو تستقطب: من خلال اختزال الإمكانات إلى (إما أو) (من ليس معنا، فهو ضدنا). يمكن تصنيف الناس بصورة فعالة وتحويلهم إلى أدوات فيما يخص الصراع

السياسي والعسكري إلى صديق وعدو، وإلى أمم «راغبة في الحرب» و«غير راغبة فيها». في أغلب الأحيان نحن لا نعرف أيضاً، مع أي من القيم نقف نحن، وإن كنا نعرف ضد أيها، ومن ثم فالجبهات واضحة تماماً. كل واحد منا يعرف أين يقف، وأين يوجد الآخر.

صورة العدو تضغط الجميع في ترسيمة صديق - عدو (مانيكانية).

- صورة العدو تفعِّل: لا المعلومة الموثوقة ولا التوجه بضروريين: المعلومات التي تأتي بها أجهزة الأمن يمكن أن تُضخَّم، تزوَّر ويتلاعب بها، ويمكن عند الضرورة أن تُخترع، نحن يحق لنا، لا بل ينبغي علينا أن نحمي أنفسنا من الآخرين، الغرباء، الأعداء، الداخليين والخارجيين. وهذا ليس فقط انعدام الثقة، وإنما عدوانية، وعند الضرورة تستخدم القوة ضد الأشياء كما الأشخاص؛ قوة فيزيولوجية، نفسية، سياسية وحتى عسكرية.

إن صور العدو تساعد على الاقتحام بصورة أفضل من العقار المتداول لوازع القتل من قبل الجنود.

ومن هنا فإن صور العدو تذكي السماح، سواء أكان ذلك للحرب الباردة أم الساخنة.

ويبقى العزاء بطبيعة الحال: ليست صور العدو أفكاراً أبدية، وليست ضرورات لا يمكن تغييرها. وهي ليست فقط قابلة للنقل، مثلما هو الحال من «الروس» إلى «العرب». كما يمكن إصلاحها: عندما يتحول الأعداء إلى أصدقاء (فرنسة - ألمانية). كما يمكن أن تفقد أهميتها (الشيوعية). نعم، يمكن أيضاً تجاوزها من خلال تركيز متجدد على مهمات مشتركة عظيمة (بسبب التهديد النووي أو بسبب الأزمة البيئية) كما يمكن أن تنتهي في جماعة ذات مصير ومسؤولية ببعد عالمي يشمل فيما يشمل الإسلام.

التعصب والنزعة الحربية والتخلف

«السلام بين الأديان بوصفه شرطاً للسلام بين الأمم؟ السلام بين الأديان أيضاً في القدس، مدينة الديانات الثلاث؟ أي وهم» بهذا واجهني قبل عدة سنوات مراسل تلفازي معروف جداً في تلك الأيام «وخبير في شؤون الشرق الأوسط». وقد أجابني عن سؤالي المقابل عن البديل «الحرب»؛ فيما إذا كانت خمس حروب بين العرب وإسرائيل غير كافية؟ كلا، لا يوجد حل آخر للصراع العربي الإسرائيلي. مع الأسف يتفق موقف هذا الرجل مع مواقف كثير من الصحفيين ومؤلفي كتب الأبحاث في أوربة، وبصورة خاصة في أمريكة الشمالية، الذين «يقدمون»،

انطلاقاً من توجه عدواني محض، لكتل جماهيرية عديمة الخبرة، بالصوت والصورة، الأحداث الراهنة، والذين يستطيعون أن يخلقوا تفهماً من أجل مثل هذه السياسة العدوانية كتلك التي يمثلها أرييل شارون ومن يشاركونه الرأي. إن أمثال ممثلي وسائل الإعلام الشعبية هم المسؤولون عن استمرار صور العدو هذه. وإذا كانت الشيوعية في الماضي العدو رقم ١ لزمن طويل بالنسبة إلى بعض المسيحيين المتدينين وإلى اليهود، فقد أصبح العدو الآن بالنسبة إلى كثير من المسيحيين واليهود هو الإسلام. يوجد بالتأكيد كثير من الناس لا يستطيعون أن يعيشوا دونما صورة عدو. «الإسلام يريد أن يحكم العالم. الاعتقاد المضلل المعادي للمسيحية، غير المتسامح والعدواني يمسك بخناق نصف الكرة الأرضية» هذه الأصوات تتردد في زوايا أصولية مسيحية محددة.

بالتأكيد يوجد هذا الموقف المعادي للإسلام مبدئياً ليس فقط لدى مجموعات يمينية متطرفة ذات صياغة يهودية أو مسيحية. وقد وجد مدخلاً وتسلل إلى دوائر واسعة من الدول الصناعية. عندما تعرض وسائل الإعلام الغربية المسلمين، فإنها تحرص على أن تظهرهم بوصفهم علماء شريعة ملتحين ومتعصبين، أو إرهابيين لا يتوقفون عن استخدام العنف، أو

شيوخاً فقط فاحشي الغنى أو نساء محجبات. فلا عجب إذن، أن تظهر صورة المسلم بالنسبة إلى كثير من الناس في الغرب على أنها صورة قاتمة. ويبدو أن الإسلام يتجلى فعله من خلال:

- عدم التسامح نحو الداخل: بوصفه ديناً كلياً ينتج هوساً، لا عقلانية، تعصباً وحتى هستيريا، يقمع برغبة عارمة الأقليات المسيحية ويلاحق، حتى دموياً، المنشقين من أمثال البهائية والأحمدية.

- النزعة الحربية ضد الخارج: بوصفه ديانة تستخدم العنف وتقود «حروباً مقدسة» لكي تسيطر على العالم ولكي يخضع الناس جميعاً لسلطانها.

- الرجعية: بوصفه ديانة متصلبة، تتمسك بصورة هوسية بالعصور الوسطى، وتحمل في طياتها خصائص رجعية وحتى عتيقة: ضد التمدن، احتقار المرأة، رفض الحوار.

ثمة بعض العناصر يمكن استقصاؤها في هذا النقد، دون أن ننسى أن بعض الاستثناءات المتطرفة للإسلام المحارب، بدءاً من الخميني وصولاً إلى بن لادن قد أضرَّت كثيراً في الغرب بصورة الإسلام. مع ذلك تحتاج تلك الأحكام المعممة القائمة على المحاججة العدوانية وعلى نزعة الاحتقار التهديمية بصورة ملحة إلى تمييز الأشياء بعضها عن

بعض وإلى التعمق في البحث، علماً بأنه يمكن أن تكون لمثل هذه الأحكام بالتأكيد في السياسة العليا آثار مدمرة. على أن كل من يحمل في رأسه مثل هذه الصورة النمطية عن الإسلام، يدرك الواقع الفعلي بصورة انتقائية فقط. وكل شيء يتميَّز عن صورة الإسلام هذه إما أن يطمس أو يعاد تفسيره. بعض المسيحيين لا يدركون على سبيل المثال: تكون الفعالية ذاتها (البعثات التبشيرية، الدعم المالي، بناء دور العبادة فوق أراض غريبة، تأكيد الذات وفرضها بصورة عدوانية) دائماً جيدة، عندما تكون ذات فائدة للمجموعة ذاتها، وتكون سيئة عندما تتم ممارستها من قبل (الآخرين).

ولكن بصرف النظر عن «المعايير المزدوجة» في التقييم: مثل هذه الصورة عن الإسلام تتفق بصورة ضئيلة مع حقيقة الإسلام. علماً بأن هذه الصورة العدائية تحرِّض حقيقةً وبالدرجة الأولى على ردود أفعال عدائية، وتتبدى هكذا بوصفها «نبوءة تحقق ذاتها». وهي تقوي النزاعات، وتدفع بالتصعيد إلى الأعلى، وتصعّب تقييم الآخرين القائم حقيقة على الاختلاف، وتجعل أي تفاهم غير ممكن، كما تهيئ لصراعات عسكرية مثلما هو الحال في أفغانستان والعراق. ولكن: هل يمكن للمرء أن يدخل في حوار جدي مع المسلمين؟

هل الحوار غير ممكن؟

«مع أي من المسلمين تريد أن تدير حواراً؟» سألني قبل مرحلة من الزمن متأملاً بصورة ساخرة صحفياً تلفازياً ذا خبرة عالية، تتحدد رؤيته العالمية إلى حد كبير عن طريق التجارب الحربية وصراعات الأديان والثقافات، علماً بأن صورة الإسلام لديه تعرضت لنقد قوي من قبل المختصين بالشؤون الإسلامية. «أنا أدير حواراً مع المسلمين الذين ليس لديك مطلقاً مدخل إليهم»، كان جوابي، وتذكرت وجوهاً ودودة إلى حد كبير، يقظة، متعطشة إلى المعرفة، لعلماء شريعة مسلمين، لأساتذة، لمثقفين ولطلاب جامعات في إسلام آباد، ولاهور وكراتشي، في القدس، والقاهرة، والرياض وطهران، في الجزائر، في لاغوس ودار السلام؛ ولمحاورين مسلمين متفهمين بصورة عالية في عالم اللغة الألمانية، في فرنسة وإنكلترة، هذا إذا صرفنا النظر عن أمريكة. كلا، أنا لست مستعداً لاختزال الفرق بين «الغرب» والعالم الإسلامي إلى ثنائية «جوهرية» بين العقلانية والإيمان، بين العلم والتديُّن، بين الفوقية والدونية، وحتى بين الحرص على السلام والاستعداد للعنف.

كما لو أنه لا يوجد في «المشرق العربي» سوى أصوليين متدينين ومتسلطين ديماغوجيين وكتل بشرية متعصبة. كما لو

أن المرء ليس من واجبه أن يميز عندما يتحدث عن الأصوليين بين المحاربين الجاهزين لاستخدام القوة الساعين إلى «الحرب المقدسة» (الجهاد) وبين أولئك الإسلاميين، الذين تدور المسألة عندهم حول تقديم هوية على المستوى الثقافي - الديني والسلمي. كما لو أن الهوس باللجوء إلى العنف من قبل مجموعات فقيرة مسلمة إنما هو مؤسس حقاً وحقيقة في جوهر الإسلام - وليس كامناً على أقل تعديل في الأحوال السيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي الإحباطات المهيمنة بسبب ديكتاتورية النخب الحاكمة المدعومة من الغرب وفسادها. كما لو أنه ليس من المهم في هذه الأيام، تطوير برامج بديلة سياسية فعالة، ثقافية لمواجهة الأصولية المقاتلة، تطوير ديمقراطي، تحديث؛ أي شكلٌ من العلمنة التي تأخذ بشكل جدي الجانب البنَّاء من الدين في المجتمع: النقيض من العلمانية الخالية من الدين. وإذا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر العولمة، فإن العلمانية الأوربية تمثَّل في أشكالها التي تقصي الدين طريقاً استثنائياً يواجه مباشرة وبصورة دائمة في أمريكة تديناً (رجعياً، وأيضاً تقدمياً).

على أساس تجاربي الخاصة يجب عليَّ، أنا الذي أتابع بطبيعة الحال يوماً بيوم الأخبار السلبية العديدة القادمة من

العالم الإسلامي، أن أسجل اعتراضي بصورة حاسمة ضد «التبسيطيين المرعبين» الذين يطلقون أخباراً منحازة عن الإسلام، يغطون على الوجوه الإيجابية، يشددون على الأحكام المسبقة المعادية للإسلام، ويدفعون إلى النهاية جميع الاحتكاكات بين المسلمين واليهود والمسيحيين، وصولاً إلى «صراع قدري إبراهيمي» أبدي، كذلك يهيجون المخاوف الشاملة من «دولة الشر» أو «محور الشر» ومن تكتل إسلامي عالمي، وذلك من أجل أن يستغلوا هذا العالم عسكرياً - سياسياً، واقتصادياً - تجارياً. إذا كانت الأمور ستجري على هذا النحو، مثلما يصر، بصورة متواصلة مباشرة أو غير ذلك، إيديولوجيون محافظون محددون، سياسيون وصحفيون، عند ذلك سيكون من الصعب في الحقيقة منع مواجهة تاريخية على مستوى العالم بين الغرب والإسلام، تماماً مثلما يبتغي في أمريكة بعض «المحافظين الجدد»، وهذا يعني نشوب «حرب عالمية ثالثة» للدفاع في الوقت المناسب عن حلف «الإنسان الأبيض». ومن هنا يمكن فقط أن نفهم ماذا تعني عملياً هجرة الفقر والعمل الحالية إلى الدول الصناعية الغنية. على أن ما يبدو في الحقيقة حديثاً، إنما هو في الأساس رجوع إلى العصر الوسيط. يمكن القول بأن ما يفهمه معاصرونا عن الإسلام لم يزد عما عرفوه عنه في العصر الوسيط. أما ما يعنيه هذا فنظرة

سريعة إلى التاريخ ستجعله واضحاً جلياً. ماذا عرف المسيحيون ويعرفون عن الإسلام؟

العلم الشرقي، الجهل الغربي

في الوقت الذي يبدو فيه المؤلفون القدامى من المسيحيين اليونان على معرفة جيدة نسبياً بالمبادئ الإسلامية وبسيرة النبي محمد، فمن العجيب أنه لم يبدأ في العالم اللاتيني، باستثناء الأندلس، قبل القرن الثاني عشر حوار غني مع الإسلام.

ماذا عرف المرء عن الشرق الإسلامي؟ استقبل النساطرة، السريان والأقباط والمسيحيون الحكم العربي بوصفه ليس ظالماً مثلما كان الحال أيام البيزنطيين. وإذ نقول إنه وجد في العالم الإسلامي مسيحيون يستحوذون إلى حد ما على فحوى حياة النبي محمد وتعاليمه، فإن ذلك قد تجلى في بداية القرن العاشر، حينما يتحدث أول تاريخ عالمي مسيحي - عربي (تم جمعه من آثار يونانية عربية من الطبيعة ذاتها) لأغابيوس (في العربية محبوب بن قسطنطين) مطران هيرابوليس (منبج) في سورية، وهو يعالج موضوعياً أصول الإسلام ونشأة النبي محمد. ولكي يبيِّن بصورة واضحة لمواطنيه المسيحيين السبب الذي جعل مناطق مسيحية مهمة

وكبيرة تحتل من قبل المسلمين، حيث إن المطران يعتمد على رسالة (مختلقة) للإمبراطور البيزنطي هيراكليوس (٦١٠-٦٤٧) وهو معاصر للنبي؛ الإمبراطور أمر ولاته في مصر، وسورية، وأرمينية وبلاد ما بين النهرين أن يتخلوا عن المقاومة ضد العرب، بناء على توجيه جاءت به نبوءة في الكتاب المقدس تتعلق بإسماعيل بن إبراهيم الذي هو جد العرب. أما الأسقف اليعقوبي أبو الفاراي بارهيبرايوس (١٢٢٦-١٢٨٦) فيتخذ موقفاً إيجابياً من الإسلام، وذلك في نهاية العصر العباسي، إذ تختلف أحكامه كثيراً فيما يخص الدعوة المحمدية.

وقد كان لرئيس الكنيسة النسطورية (كاتوليكوس) مارتيموتوس (٧٨٠-٨٢٣) الشرف في أن يجري حواراً علمياً لمدة يومين مع المهدي (٧٧٥-٨٢٥) حول الخلافات اللاهوتية. هنالك حوار افتراضي فقط، وإن كان على درجة كبيرة من الأهمية يعود إلى تلميذ تلميذ يوحنا بن سيرين، المعروف بوصفه يوحنا الدمشقي، (متوفى سنة ٧٥٠)، وهو ابن أحد كبار المسيحيين العرب، وموظف مالي كبير في الإدارة البيزنطية الملكية، ومتعاون مع أول الخلفاء الأمويين معاوية. الشاب يوحنا كان سكرتيراً خاصاً في الإدارة المالية (المعرَّبة من ثم)، وعندما منع الخليفة

عمر بن عبد العزيز المسيحيين واليهود من تسنم المناصب العليا في الدولة تحول يوحنا في النهاية إلى راهب وسكن في الدير المشهور في سباس قرب القدس. العمل المعروف (Disputatio christiani Saraeeni الجدال المسيحي مع العرب) لم يصدر بكليته عنه، وإن كان الفصل المتعلق بالإسلام موجوداً في عمله الرئيسي العقائدي «مصدر المعرفة». هناك يستحضر الدمشقي قصة قصيرة عن مئة من الهراطقة، وهؤلاء الهراطقة مأخوذون من كتاب آخر، علماً بأن الفصل الختامي مباشرة عن الإسلام رقم (١٥٥) بوصفه الهرطقة الأحدث، مكتوب حقيقة بخط يده. لا شك في أن الكتابات الساخرة القائمة على الثقة الزائدة في النفس حول الإسلام مكتظة بالمفاهيم الخاطئة، حتى إن الإجابات المسيحية يغيب عنها أيُّ نقد ذاتي وأيُّ مراجعة، وتنتهي بفصل سخيف عن إحدى السور، التي يفترض أنها تتخذ من الناقة موضوعاً لها... ولأن يوحنا الدمشقي أكثر أصحاب المنظومات أهمية بالنسبة إلى الكنيسة الأرثوذكسية وبوصفه آخر آباء الكنيسة، فإن أحكامه حول الإسلام لقيت انتشاراً واسعاً، وهو يرى أن الإسلام ليس ديناً له أصالته الخاصة، ومحمد ليس نبياً حقيقياً، أما الوحي لديه فهو ناتج عن التخيلات.

لقد انتشرت في العالم اليوناني سلسلة كاملة من الأحكام التي تبغي الغمز من قناة النبي محمد كي تجرده من صفات النبوة، كما انتشرت خرافات عن وجود راهب مسيحي تم اغتياله فيما بعد، وهو الذي علمه القرآن، وعن وجود حمامة، أكلت له حبيبات من الأذن، وصارت بالنسبة إليه روح القدس، وملهمة الوحي. أما قبره في مكة فقد شوهد معلقاً في الهواء من خلال قوى سحرية.

والآن، كيف كان المستوى العلمي في الغرب الأوربي؟

لم يعرف المرء بعد ٤٠٠ سنة على ظهور النبي محمد أيَّ شيء له مصداقية عن الإسلام: إنه «عصر الجهل». بداية عندما قام بطرس فينيرابيليس، وهو شخصية هامة ورئيس دير كلوني، في عام ١١٤٢ برحلة تفقدية إلى إسبانية بعد النجاحات الإشكالية للحملة الصليبية الأولى، وقد تبين له بكل وضوح، بأن الإسلام لا يمكن أن يُهزم إلا بقوة الكلمة، ومن هنا فقد اعتمدت دراساته المصادر الكاملة للإسلام. وبناءً على طلبه أُنجزت أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية من قبل الإنكليزي روبرت كبتون في عام ١١٤٣. وقد نشرت هذه الترجمة مع نصوص ذات صبغة تقوم على المحاججة والتقريظ للقديس بطرس ضد الإسلام، وقد أعلي بحق من شأن هذه النصوص بوصفها «حجر الأساس» في الدراسات

الإسلامية، التي أنهت عصر الجهل، «لقد أصبح للغرب لأول مرة أداة للدراسة الجدية للإسلام». ومن الجدير ذكره، أن هذه الأداة استخدمت سواء أكان ذلك من كاردينال عصر النهضة الداعية إلى التفاهم نيكولاس فون كويز أو من قبل المفتش الأعظم في إسبانية جوان دي توركيمادا أو حتى من قبل مصلح الكنيسة مارتن لوثر.

ومن المفارقات العجيبة أن الحروب الصليبية هي التي قادت إلى معرفة أكثر اكتمالاً عن الإسلام وعن نبيه، على الرغم من كل تلك العدائية الشديدة وتلك الحروب. وقد حرص الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، الذي ولد في باليرمو ونشأ بين المسيحيين والمسلمين على إقامة علاقة قوية مع الحضارة العربية المشرقية في صقلية وجنوب إيطالية. وقد أحيطت بكثير من الألغاز رحلة القديس فرنسيس الأزيزي إلى السلطان الملك الكامل إبان الحملة الصليبية في أثناء حصار دمياط بالقرب من مصب نهر النيل، ويبدو أنه سافر في عام ١٢١٩ دونما أي معرفة عن الإسلام ودونما أي حماية، حاملاً معه خطر الاستشهاد: «عندما وصل إلى القرب من دمياط نصح فرنسيس رجال الحملة بأن يقلعوا عن الحرب، ولم تكن لديه أي رغبة في أن يشترك في الهجوم. رجال الحملة لم يعيروه اهتماماً. لكن السلطان، هو الذي أصغى

إليه. وهكذا يكون لدينا الدليل القاطع، بأن ما قام به القديس فرنسيس كان يتناقض مع كل هوس الحروب الصليبية».

ويمكن أن نذكر هنا بأن كلاً من فلهلم فون تيروس (١١٣٠-١١٨٦) وفلهلم فون تريبوليس (١١٢٠-١٢٧٣) قد كتب بشكل منصف تماماً عن الإسلام. أما السلطان صلاح الدين في مصر (١١٣٧-١١٩٣) فهو مقدَّر في أوربة حق قدره، وينظر إليه بوصفه نموذجاً للإنسان الذي يمثل الفروسية. وقد أظهر المرء احتراماً مقروناً بالإعجاب إزاء تفوق الحضارة العربية في الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب، وبطبيعة الحال إزاء القوة الاقتصادية والعسكرية للإسلام، ولكن ليس إزاء الإسلام بوصفه ديناً.

في الحقيقة لا ينتمي توما الإكويني إلى روَّاد الحوار مع الإسلام في العصر الوسيط. وهو لم يعرف الإسلام إلا من خلال الفلاسفة المسلمين الكبار، وهو يرى أنه يستطيع أن يدافع عن العقائد المسيحية فلسفياً ضد الإسلام على مستوى عقلاني محض، دون أن يهتم بالقرآن أو بأحاديث مع مسلمين. لدينا رائدان اثنان وهما معاصران لتوما الإكويني، وعلى معرفة جيدة باللغة العربية؛ الإنكليزي ذو التكوين الموسوعي روجر بيكون (١٢٢٠-١٢٩٢)، الذي كان متأثراً بابن سينا، وقد بذل جهداً كبيراً من أجل الحصول على

معرفة جيدة بالعلوم العربية، ويأتي بعده الكاتالوني إيدل مان رامون للول (رايموندوس لوللوس ١٢٣٢-١٣١٦)، الذي أنفق جزءاً كبيراً من حياته في سبيل هداية المسلمين، وقام بثلاث رحلات إلى شمال إفريقية، ودخل في حوار سقراطي تقريباً غير محاجج مع المسلمين، إذ لم يعتمد كثيراً على الوثائق الكنسية بقدر ما اعتمد على الأسس العقلية.

مع عصر النهضة دخلت مرحلة من التبخيس والرفض لكل ما هو عربي، بما في ذلك اللغة العربية. هذا مع أنه أحدثت كرسي تعليم للغة العربية، ومع أنه ظهرت الترجمات العديدة من اللغة العربية، ومع بروز جهود عدد كبير من المثقفين ورجالات الدولة من أمثال جوان دي سيفوفيا، نيكولاوس فون كويز، والبابا الذي جاء فيما بعد (بيوس الثاني) إينيا سيلفيو بيكولوميني، الذين انشغلوا بين عامي ١٤٥٠ و ١٤٦٠ في (لحظة الرؤيا) وفي أفق سلمي بالجدال مع مشكلة الإسلام.

من المماحكة والصورة المشوهة إلى التقييم الجيد القائم على الاختلاف

بعد نحو مئة سنة أمر البابا كلمنس السابع (مدتيش) بسبب التهديد العسكري المتنامي بصورة متواصلة للمسيحية

من قبل الأتراك (١٥٢٩) حصار فيينا، (١٥٤١) احتلال بودابست وذلك في عام اعتراف أوغسبورغ من قبل لوثر ١٥٣٠، بإحراق النص العربي للقرآن مباشرة بعد صدوره، وكان هذا النص قد نشر في البندقية، وأطلق عليه في ذلك الحين، لأنه كان فاعلاً لزمن طويل بوصفه قوةً سياسيةً عظمى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط مع الإمبراطورية العثمانية (عاهرة الأتراك). ربما كانت هذه المصاحف المطبوعة لأول مرة معدة للتصدير إلى البلدان الإسلامية، التي لم تكن قد عرفت بعد طباعة الكتب. ومثلما هو الحال دائماً: في روما، كما في مكان الطبع بازل كان المرء يخشى زيادة قوة التوجه المعادي للتثليث (وهو ما يعتمد عليه الكتاب المقدس).

لوثر من جانبه أعرب بإصرار عن رغبته في ترجمة القرآن ونشره، لكن فقط لكي يعرف كل إنسان مقدار ما يشتمل عليه من مغالطات، على حد زعمه. وهو يرى أنه يجب أن يكون ثمة لاهوتيون لوثريون، عليهم أن يقرؤوا هذا الكتاب، لكي يفندوا أقواله. وقد نظر إلى المسلمين وإلى الحكام الأتراك على أنهم ملعونون ويعملون في خدمة الشيطان، وقد انطلق هذا الحكم على أساس الخطر العسكري القوي والخوف من النهاية المحتملة: ولقد أنكر في هذا الزمن أن يكون محمد نبياً، ورأى في الإسلام مجرد قوة عسكرية معادية للمسيحية.

حتى العمل الرائد للإسكتلندي ألكسندر روس الذي يعالج تاريخ الأديان والمسمى (بانسيبيا ١٦٥٠) (عبارات متعددة في العالم كله ١٦٦٨) أعطى في الغرب صورة مشوهة تماماً عن الإسلام، مثلما حددتها بشكل دقيق دراسة نورمان دانييل (الإسلام في الغرب: صنع صورة) (١٩٦٠): مثل هذا الدين لم يكن بإمكانه إلا أن يصنع تعاليم ضالَّة وتزويراً مقصوداً للحقيقة، إنه خليط من العنف وهوس المتعة، أما محمد فهو مجرد عدو للمسيحية. وكان من السهل استحضار صورة مثالية عن المسيحية مقابل الصورة المشوهة للإسلام، وهذا يعني في زعمهم أن المسيحية هي دين الحقيقة، والسلام، والمحبة والعفة. في العادة يغمط المرء من شأن منافسيه لكي يحصن تابعيه ضد منظومات الاعتقاد الأخرى.

لقد كان سبَّاقاً عمل المستشرق من أوترشت أدريان ريلاند (الدين المحمدي) (١٧٠٥)، وهو يعد بعد (بانسيبيا) أول دراسة موضوعية إلى حد ما عن الإسلام وعن النبي محمد، وهي، مع كل طبيعتها التقريظية، صححت بعض الآراء الخاطئة المتداولة عن الإسلام، وإن كانت قد وضعت فوراً في اللائحة الرومانية ضمن الكتب الممنوعة. قد أعيد اعتبارها من خلال الترجمة الإنكليزية للقرآن من قبل جورج

سيل، ومن ثم عمله المشهور (خطاب تمهيدي) (١٧٣٤) بتكليف من جمعية ارتقاء المعرفة المسيحية (SPCK) مع الالتزام بالتنوير وبدين متسامح متوافق مع العقل.

الأنوار من خلال الشعرية

لأنه بعد حرب الثلاثين سنة رفعت فلسفة عصر الأنوار فكرة التسامح إلى مرتبة الشرف، وقد تبين ذلك على سبيل المثال في ألمانية من خلال مسرحية غوتهولد إفراييم لسنغ (ناتان الحكيم) (١٧٧٩) مع الأمثولة المشهورة عن الخواتم الثلاثة؛ أي عن الأديان الثلاثة، التي لا يمكن أن يقول أحد عن أي منها بشكل أكيد، بأنه هو الصحيح. إنها مسرحية تظل راهنة بامتياز بعد نحو ٢٥٠ عاماً. في عام ١٩٨٤ ألقيت في رحاب الدراسة العامة لجامعة توبنغن مع عالم الأدب فالتر بينز محاضرات ذات طبيعة حوارية حول ثمانية كتَّاب من الأدب العالمي، وتحدثت في ١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر عن (ناتان). هذا الحوار الدرامي بين الديانات العالمية الثلاث ذات الأصل السامي، وذات الأصول النبوئية، مقدمة في شخوص مبينين وهم معمَّرون بالروح والعقل: يهودي متنور (حسب المسرحية القديمة للسنغ «اليهود» عام ١٧٤٩ اليهودي الأول العالي الشأن في الأعمال المسرحية الألمانية)، وكذلك مسلم متنوِّر (السلطان المهم صلاح الدين)،

ومسيحي غير ناضج ولكنه في النهاية متنور (أحد فرسان الصليب الشباب بوصفه الشخص النقيض للأب صاحب السلطة). من كان يمكن له أن يتذكر أي راهنية كالحة يمكن أن تحتوي عليها هذه القطعة مع رؤيتها الموحية للسلام بين الأديان باعتباره شرطاً للسلام بين البشرية قاطبة؟

إبان سنتين بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، أي بين عامي ٢٠٠١-٢٠٠٣ عاشت (ناتان) ٢٤ حالة إخراج وعرض على الخشبة الألمانية (أحد العروض أقيم في نيويورك). ولقد خص المخرج كارل جوزيف كوشل هذه القطعة بتحليل رائع، يشير بصورة مقنعة «لماذا ناتان» حتى يومنا هذا لا بديل لها، ووحدها (ناتان) لسنغ مبنية تبعاً للمنطق الثلاثي. فقط في هذه المسرحية يجري الحديث عن كل هذه التقاليد والثقافات في احتمالات صراعاتها ومصالحاتها. ونحن ليس لدينا نص مرجعي كبير آخر في الأدب الألماني، عندما تدور المسألة حول العلاقة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. على أنه في الساحة العالمية الحالية تدور المسألة من جديد حول الصراع بين العالم اليهودي والمسيحي والإسلامي - معكوساً في نقطة المحرق فلسطين مثلما كان عليه الحال في أزمنة الحروب الصليبية.

ينتقد كوشل بحق تركيز الدراما، الذي يقوم به الآن بعض المخرجين، على إشكالية العلاقات اليهودية - الألمانية مع

إغفال المسلمين. لسنغ يقوم من خلال ثلاثة مسلمين مجسدين إيجابياً على الخشبة «بإجراء تقييم عالٍ محسوب واستراتيجي للمحتقر» في خطاب ما بين ثقافي وما بين ديني، وهذا التقييم هو «النقيض من المثلنة الساذجة».

نادر أن قام أحد في أوربة إلى جانب لسنغ بالتقييم العالي للإسلام مثلما فعل الشاعر الكبير يوهان فولغفانغ فون غوته في عمله (الديوان الغربي - الشرقي) (١٨١٤)، إنها مجموعة من القصائد (بالفارسية: ديوان) نشأت نتيجة مواجهة الشاعر الغربي مع قصائد الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي (القرن الرابع عشر)، وهي القصائد التي تعبر مع (غرب شرق) عن مواجهة شاعرين اثنين، أدبين وحضارتين - مع تجربة الحب في كتاب (زليخا) في المركز، ومع الإشكالية الدينية في الكتب الأخيرة بوصفها ذروة. وإذا أردنا أن ننطلق من غوته، فقد وضع المستشرق والشاعر فريدريك ريكرت موهبته غير العادية في اللغة والتشكيل في خدمة شعرية تحاكي القرآن.

في إنكلترة ظهر لاحقاً مترجم غوته توماس كارليل، وهو الذي طور في محاضرته التي أثارت اهتماماً كبيراً تحت عنوان (البطل كنبي) صورة سيكولوجية أظهرت النبي محمداً بوصفه رسولاً صادقاً - على النقيض تماماً من التراجيدية غير

التاريخية بالكامل (مثلت لأول مرة في ليل عام ١٧٤١)، التي يظهر فيها فولتير احتقاره للنبي بوصفه رجل سلطة خالياً من الضمير على خشبة المسرح. ومن المؤسف جداً أن يخرج هذا العمل من بين يدي أعظم المكافحين من أجل التسامح ومن أكثرهم أهمية.

معرفة المشرق والاستشراق

في القرن التاسع عشر - وهو قرن كتابة التاريخ والتوسع الاستعماري الأوربي - جلب معه في النهاية زخماً هائلاً في المعرفة المتعلقة بالمشرق وبعلوم الإسلام التاريخية - النقدية، التي أصبحت شرطاً بالنسبة إلى تقييم أول مماحكة للإسلام من جانب اللاهوت المسيحي ومن جانب الكنيسة، باتجاهٍ يصل إلى خمسة أضعاف تجلى تقدم حاسم في القرنين التاسع عشر والعشرين:

- تقدير تاريخي - نقدي للنبي محمد من خلال بحاثة من أمثال غوستاف ويل، وألويس شبرنغر، ووليم موير، وريغنالد بوز وورث سميث، وليون كايتاني، وتور أندري، وريجيس بلاشير، ومكسيم رودنسون ومونتغمري واط.

- تاريخ القرآن الباقي بقيمة مرجعية حتى الآن لتيودور نولدكه، إضافة إلى إصدارات تاريخية - نقدية للقرآن مع

ترجمات حديثة مطابقة، مرتبطة بأسماء غوستاف فلوغل، وريشارد بِل، ورودي باريت وعادل خوري.

- استقصاء شامل للحضارة الإسلامية؛ من العبادة إلى التصوف عبر الشريعة والأخلاق وصولاً إلى الأدب والفن من خلال علماء لهم أهميتهم الفكرية من أمثال إغناز غولدتسيهر، وك. سنوك هورغرونجي، وآن ماري شميل، وقبل الجميع المستشرق الكبير لويس ماسينيون، الذي طالب المسيحيين «بانعطافة روحية كوبرنيكية»، وعمل من أجل المصالحة بين دين الأمل (اليهودية) ودين المحبة (المسيحية) ودين الإيمان (الإسلام).

- التقدير العالي تاريخياً - نقدياً للصورة القرآنية ليسوع، التي افتتحها ج.ف. غيروك قبل ١٥٠ عاماً وتمت متابعتها من قبل البحوث المتعلقة بتاريخ التقاليد، مع الأعمال الأكثر حداثة والشاملة، التي قام بها كل من جيوفري باريندر، وهايكي رايزانين، وكلاوس شِدي ومارتين باوشكي (بالنسبة إلى الأدب الإسلامي - العربي المتأخر)، والتي ألغت نهائياً طريقة التأمل - التبشيرية - التقريظية.

- تاريخ متعدد المجلدات أنجز على أساس دراسة تامة للمصادر قام بها المختص بعلم الكلام الإسلامي الكلاسيكي جوزيف فان إس.

لقد قام علم الشرق الأوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين بإنجاز هائل، وخلق بذلك الشروط لفهم الشرق بصورة عامة وفهم الإسلام بصورة خاصة. بالتأكيد لم تكن المعرفة المتعلقة بالشرق لزمن طويل ذات رؤية واضحة، بالكيفية التي وقفت فيها في خدمة سياسة الهيمنة الثقافية والاقتصادية للقوى الأوربية مع كل الجهود التي بذلت من أجل الموضوعية العلمية المجردة حول التاريخ والتفهم الذاتي لمعرفة الشرق، التي لقيت تقديراً كبيراً في العالم العربي، وضعت نصب عينيها في الغرب إبان ستينيات القرن العشرين إجراء مراجعة تقوم على النقد الذاتي، حيث يمكن ذكر أسماء في هذا المجال من أمثال نورمان دانييل وجاك فاردنبورغ.

في عام ١٩٧٨ نشر إدوارد سعيد، وهو فلسطيني مسيحي بجنسية أمريكية، وهو بروفسور في الدراسات الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبية، كتاباً تحت عنوان (الاستشراق) أثار صدمة قوية، كما وضع الأساس لجدال مع الفهم ما بعد الكولونيالي للثقافة و«للدراسات ما بعد الكولونيالية». دونما أي شك ذهب بعيداً جداً هذا الناقد الفذ للأدب والثقافة والمجتمع، والمكافح منذ عام ١٩٦٧ عن المسألة الفلسطينية، عندما أوضح أن المعرفة الأوربية المتعلقة بالشرق (ضد عربية) قابلة للمقارنة مع اللاسامية

المبكرة، كما أراد أن يظهر «الشرق» (الحسي، الفاسد، الخبيث، الكسول، الطغياني) للمعرفة بالشرق بوصفه إسقاط الرغبة لروح المركزية الأوربية: الشرق بوصفه البارادايم المركزي للآخر.

مما لا يختلف عليه بالتأكيد: أن معرفة الشرق الأوربية كانت إلى حد كبير تقررها المصالح القومية والدينية للقوى المستعمِرة. كثيراً ما تعاون رجالات الجيش، والسياسيون، والمبشرون وعلماء الاستشراق، ومما لا شك فيه أن المبالغة في إعلاء شأن الحضارة الأوربية كانت دائماً تجري مع التقليل من أهمية الحضارة العربية. إذن في كثير من الأحيان يكون هناك إمبريالية «روحية» ثقافية.

بعد الحرب العالمية الثانية وبعد الهولوكوست، أدى الصراع العربي الإسرائيلي إلى أنه ليس فقط المستشرقون الألمان، وهم يضعون نصب أعينهم الذنب الألماني التاريخي، انحازوا في معظم أعمالهم بصورة أحادية الجانب إلى الموقف الإسرائيلي، إدوارد سعيد ذاته وقف بقوة ضد أسلوب القيادة المتسلطة لياسر عرفات وشكل مع قائد الأوركسترا اليهودي دانييل بارنياوم (ديوان غربي - شرقي) عظيماً، أي أوركسترا، تحتفل بنجاحاتها على مستوى العالم بوصفها عملاً تصالحياً بين العرب واليهود.

توفي إدوارد سعيد عن ٦٧ عاماً بمرض اللوكيما في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣. وقد أطلق عليه «المفكر العربي الوحيد في القرن العشرين» الذي طبع بطابعه الخطاب الفكري في الغرب وجعله حاضراً. تبدو لي الجمل الأخيرة في مقاله الأخير المعروف بالنسبة إلي (مكتوبة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١) كأنها وصية: «الزمن الحاضر مليء بالتوترات، ولكن من الأفضل أن يسأل المرء، عمَّا إذا كانت المجموعات البشرية واعية أو غير واعية، وعمَّا إذا كانت السياسة العالمية مبنية على العقل أم على الجهل، والأفضل أن يقيم المرء تبعاً للمعايير الكونية من العدالة أو الظلم، أفضل من أن يقيم في مجردات هائلة، يمكن أن تُشعر المرء بالرضا لزمن قصير، لكنها لا تقود إلا بصورة ضئيلة إلى معرفة الذات وإلى تحليل موضوعي. إن أطروحة (صدام الحضارات) ليست سوى لغو بسيط مثل (حرب العوالم)، وهي تنمي الغرور المتعالي بوصفه وعياً نقدياً بالنسبة إلى التداخل المذهل للمجتمعات الحالية».

المناقشة الخلافية بداية حول كتاب إدوارد سعيد قادت، عندما يصرف المرء النظر عن التنظيمات الإسلامية الأصولية والمتحدثين بأسمائها، إلى رؤية موضوعية للأشياء، قبل كل

شيء إلى مجهودات مشتركة للعلماء العرب من أجل تقييم مختلف نقدياً لمعرفة الشرق (الاستغراب العربي لم يحقق تطوراً). ليس أكثر مدعاة للفرح من أن أدت حرب الخليج ١٩٩٠ والصحفيون «مروجو الذعر» إلى حصول انعطافة فيما بين المستشرقين الألمان، وهؤلاء كانوا مختلفين جداً عما كان عليه المستشرقون الإنكليز والفرنسيون، وهذا لم ينطلق من الإدارة الاستعمارية وإنما من علم اللغة وعلم التاريخ، ولهذا السبب ظلوا في منأى من نقد إدوارد سعيد. حتى العلماء الاختصاصيون المتطورون، الذين اكتفوا حتى الآن بتقزز خاص إزاء الرواج الباهر للكتاب الصحفيين، وقد مارسوا في «اختصاصاتهم المعمقة» علماً متنحياً عن العالم، راحوا يدركون الآن مسؤوليتهم السياسية. لقد غامروا باقتحام الوسائل الإعلامية المتاحة للرأي العام لتصحيح الصورة المشوهة للإسلام وللعرب المنتجة من قبل صانعي الرأي، وهي غير متمايزة وغير تاريخية - وهي خطيرة بصورة خاصة في عصر عداوة الغريب المتنامية - وذلك من خلال معارف موضوعية.

بطبيعة الحال: عندما يواجه المرء بوصفه لاهوتياً مسيحياً وبصورة حاسمة الصورة المشوهة للإسلام، لا يعني ذلك إطلاقاً أن عليه أن يمجد الصورة المثالية للإسلام.

الصورة المثالية للإسلام

مما لا خلاف عليه أنه: بالنسبة إلى مئات الملايين من الناس على هذا الكوكب ينطلق سحر وجاذبية من الإسلام. وكل من عاش مثلي أزمنة التقريظ الكاثوليكية غير النقدية بصورة واعية تماماً قبل المجمع الفاتيكاني الثاني، يستطيع على أقل تقدير أن يشعر، لماذا يحاول بعض المسلمين المتدينين أن يصفوا دينهم الخاص بهم بأكثر الألوان إشراقاً. إذا صرفنا النظر عن أشكال النقد يمثل الإسلام من قبل كثيرين «عالماً مقدساً»، لا يختلف إلا قليلاً عن التمثيلات المسيحية للدين المسيحي، وهي التمثيلات الموضوعة تحت ألوان زاهية.

دعوة إلى الهداية

وهكذا أرسل لي محمد أحمد رسول، وهو داعية مسلم في ألمانية، عمله (ما هو الإسلام) مع دعوة ودودة لكي أصبح مسلماً. في النهاية أتيحت لي الفرصة أن أدخل في تاريخ الإيمان الحقيقي وأن أجرب حظي في هذه الدنيا كما في العالم الآخر.

في كتيِّبه لخص هذا المسلم «ما هو جوهري» فيما يخص دينه في صورة موجزة وواضحة: في البداية «أسس الإيمان»

(بالإله الواحد، وبملائكته، وبكتبه المقدسة، وبرسله، واليوم الآخر، والقضاء المحتوم)، ومن ثم «أركان الإسلام الخمسة» (أداء الشهادتين، إقامة الصلاة، أداء الزكاة، صيام رمضان، أداء فريضة الحج). مباشرة ومن البداية يوجد ما هو حاسم: الإسلام؛ هذه الكلمة العربية تعني «الخضوع الكامل والاستسلام لله، الإله الواحد. بهذا التعبير يصف الله ذاته في القرآن، وهو الكتاب المقدس للإسلام، دين المسلمين؛ الكلمة مسلم مشتقة من جذر الكلمة ذاتها سلم كما الإسلام، والكلمة تطلق على من استسلم لله كلياً».

هنا يقدَّم لنا دين بصورة مثالية. الإسلام في الحياة والأخلاق غير معقد، وعقلاني ومتسامح. وهو ليس شيئاً آخر سوى عقيدة الإيمان بالتوحيد الخالص. وهذا أعطي لنا في «خلاصة إسلامية صغيرة» رسمية من أجل أن نفهمها من تركية. هناك يقرأ المرء:

«اسم ديننا هو الإسلام.

هذه التسمية لم يفكر فيها إنسان،

إنما أعطيت من الله في القرآن المقدس.

لذلك فإن الإسلام ليس دين شعب، أو أمة،

وإنما هو دين البشرية قاطبة،

إنه الدين الأخير،

إنه دين الفهم والعلم،

إنه دين الأخلاق،

إنه دين السلام والنظام،

إنه الحياة بالنسبة إلى أولئك الذين يؤمنون به.

الإسلام ينقِّي القوانين،

التي كانت موجودة في الأديان،

وبعد ذلك زوِّرت بيد الإنسان.

لقد أنقذ البشرية من ظلماتها الروحية.

وقادها باتجاه ذرا الأخلاق،

إلى ما لم يستطع عقل الإنسان أن يفكر فيه».

عندما يريد مسيحي أن يدخل في حوار مع مسلمين، عليه أن يقبل بمثل هذه العقائد الإسلامية بكل طيبة خاطر، حتى ولو كان يلاحظ جيداً، بأن الإسلام يعرض هنا على حساب اليهودية والمسيحية، الذين يقال عنهم إنهم حرفوا «كلمات الله باليد البشرية». بالتأكيد إذا لم يكن هناك قبول، ومشاعر مشتركة، وحتى تعاطف، مع الإحساس بالمشاركة، فلا ينبغي الدخول في حوار بين الأديان، كما لا ينبغي أن يؤلف كتاب

عن دين آخر. إن الأمانة العلمية التي لا تساوم، والتي تقول الحقيقة، دونما خوف، في جوانبها المتعددة، والالتزام الغيور الذي يعمل دونما كلال ضد الكره وانعدام الفهم ومن أجل السلام والتفاهم، لا يلغي بعضها البعض الآخر، ومن الطبيعي أن يقابل ذلك بمثله من الجانب الإسلامي.

جاذبية الإسلام

في الحقيقة يمكن لجاذبية الإسلام أن تشمل في تأثيرها اليهود والمسيحيين معاً. ونستطيع أن نذكر هنا شاهداً غير متحيز. وهو مؤسس علم الإسلام الحديث اسمه: إغناز جولد تسيهر. بين عامي (١٨٧٣ - ١٨٧٤) أقام هذا العالم اليهودي الهنغاري المنشأ في كل من دمشق والقاهرة. تشير يومياته في صفحات قليلة بصورة مؤثرة، كيف يمكن للمرء أن يصبح «خبيراً حقيقياً في الشرق الأوسط». المودة العفوية وتعاطف الناس، وهذا ما يمكن أن يعيشه كل إنسان هذه الأيام في بلدان الشرق الأوسط. كل ذلك أتاح لابن الثلاثة والعشرين عاماً، والذي هو غريب الدين والوطن أن يتغلغل سريعاً في «الدين العالمي المترامي الأطراف الإسلام»: عشت متعمقاً خلال هذه الأسابيع وبقوة في الروح الإسلامية، ذلك أنني متأكد في النهاية داخلياً من أنني ذاتي مسلم، إضافة إلى أنني استخلصت بذكاء، أن هذا هو الدين الوحيد، الذي يمكن أن

يرضي الرؤوس الفلسفية في تشكيله الرسمي العقائدي، وفيما يصوغه من مبادئ. ولقد كان هدفي الأعلى، هو أن أرفع اليهودية إلى سوية عقلانية مشابهة. الإسلام، وهذا ما علمتني إياه تجربتي، هو الدين الوحيد الذي تحتقر فيه الشعوذة والبقايا الوثنية، ليس من خلال العقلانية وإنما من خلال التعاليم الصارمة. وهو يضيف إلى ذلك: «كانت طريقتي في التفكير شيئاً فشيئاً منحازة إلى الإسلام، وأنا هنا لا أكذب إذا قلت بأنني أومن بالنبي محمد. ويمكن لنسختي الخاصة من القرآن أن تقدم شهادة، وتبين إلى أي حد كنت داخلياً منحازاً إلى الإسلام. أساتذتي ينتظرون جدياً لحظة شهادتي العلنية».

بالتأكيد بقي جولد تسيهر يهودياً، وصار في العلوم اليهودية عالماً كبيراً. وهو يختلف في هذا المجال عن الفيلسوف المعروف في يومنا هذا، الفرنسي روجيه غارودي، وكان لزمن طويل عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، ثم صار مصلحاً شيوعياً، كما كان لمرحلة زمنية قصيرة مسيحياً. في نهاية رحلته الروحية الطويلة اهتدى إلى الإسلام. وهو يرفض بقوة عمى الغرب المسيحي وغطرسته، ويحرص بفعالية على «حوار الحضارات»، ويقدم لقرائه فيما يخص موجة الأصولية إسلاماً مثالياً، أعطى

للحضارة التي في طريقها إلى الموت روح حياة جماعية جديدة. إن «الهدف الأساسي» لكتابه إنما هو أيضاً أن يبرز إلى العلن «وعود الإسلام» في عالم سائر إلى الانهيار «الإسلام لم يستوعب فقط أقدم الحضارات وأكثرها تطوراً؛ من الحضارة الصينية، إلى الهندية، إلى الفارسية واليونانية، من حضارة الإسكندرية إلى بيزنطة، وإنما زادها خصباً، وانتشر من بحر الصين حتى الأطلنطيك، من سمرقند إلى تمبوكتو. ولقد منح للإمبراطوريات العالمية السائرة في طريق الانهيار، وللحضارات المشرفة على الهلاك روح حياة جماعية جديدة، كما منح الناس ومجتمعاتهم أبعاداً إلهية وبشرية نوعية متعالية، وأعطى على أساس هذا الإيمان البسيط والقوي التربة الصالحة لمرحلة ازدهار جديد للعلوم والفنون، للحكمة المنبثقة عن الأنبياء ولسطوة القوانين». أما إذا كان لمثل هذه الحماسة القوية للإسلام جوانب سلبية، فإن ذلك يتجلى في أقوال غارودي في تسعينيات القرن العشرين، التي أخذت على أنها تعزز النزعة اللاسامية، علماً بأنها كانت كذلك إلى حد ما.

هل غارودي حالة مفردة؟ في ألمانية أيضاً أصبحت الحملة التي شنَّها أحد المهتدين معروفة لدى الرأي العام، والحديث عنها يجري بأشكال مختلفة ومتناقضة: مراد

فيلفريد هوفمان، الذي أثار لهذا السبب اهتماماً كبيراً؛ لأن هذا الرجل المكوّن قانونياً وفلسفياً كان سفيراً لألمانية في المغرب والجزائر. بالنسبة إليه يجسد - في العمل الذي يعلن فيه هدايته - الإسلامُ الكلاسيكي السني (هو لا يقيم وزناً كبيراً للتصوف على عكس غارودي) ديناً مثالياً يعلي من شأن الحياة وقيمها. أكثر من ذلك: هوفمان ينظر إلى الإسلام بوصفه بديلاً واعداً بالمستقبل: «ما دام العالم الغربي والشيوعية يقفان وجهاً لوجه، يمكن أن يفهم الإسلام بوصفه (الطريق الثالث)، أي على أنه خيار بين هاتين الرؤيتين إلى العالم. في هذه الأيام ينظر إلى الإسلام على أنه المشروع البديل للتغلب على الحياة في عالم أصبح من جديد صراعياً بامتياز. ذلك أن الإسلام سوف يصبح في القرن الواحد والعشرين ديناً مسيطراً على مستوى العالم، أمر واضح تقريباً لكل مراقب له رؤية ثاقبة. أما لماذا سيتحقق هذا الأمر، فإن ذلك يعود إلى إرادة الله، هذا ما يبشر به عنوان الكتاب. الإسلام لا ينظر إلى نفسه فقط على أنه البديل لمجتمع غربي ما بعد صناعي. إنه حقاً البديل».

هل يحق للمرء أن يمارس نقداً؟

بطبيعة الحال يُفترض أن تكون جاذبية الإسلام هذه جاهزة للفحص والتدقيق. هل هو فعلاً «البديل»، هل هو

فعلياً «النبوءة» المبرمة؟ وكما أنه لا يجوز الخوف من صورة معادية، كذلك لا يجوز أن تغلق أعينَنا الصورةُ المثالية. وهذا الأمر يعرفه الكثيرون الذين اهتدوا إلى الإسلام: لا يوجد نقد علمي صالح بوصفه مهمة العلم الإسلامي التقليدي، وهذا الاختلاف مع علم الإسلام الغربي الحديث ينبغي أن تتم مراعاته من البداية. يتمثل أفق هذا العلم التقليدي بالدرجة الأولى في الوصف والشرح وتسويغ إسلام مثالي. هل يحق للمرء إذن أن يمارس نقداً جدياً على الإسلام، نقداً من الداخل، وحتى نقداً من الخارج؟

كثير من المسلمين الملتزمين يرفضون من الأساس أي نقد يتعلق بدينهم، دون أن ننسى أن كثيراً من المتعلقين بشدة بالمسيحية أو اليهودية يستجيبون هذه الأيام إلى نقد ديانتهم بصورة غير رحيمة وغير موضوعية. لقد خبرت في كتبي عن المسيحية واليهودية، كيف قاد النقد الذي مارسته على دولة إسرائيل ناقداً يهودياً خبيراً، وكذلك نقدي الذي مارسته على سياسة البابا بيوس الثاني عشر كيف ساق ناقداً كاثوليكياً ذا معرفة؛ إلى أن يطلقا النار على مواقع متفرقة من كتابي، وأن يعاقبا الأقسام الباقية بالتجاهل التام. على النقيض من ذلك فقد طبق بعض المثقفين المسلمين منذ مدة طويلة نقد العلم الغربي على دينهم الخاص وعلى التاريخ والثقافة، إلى درجة

أن خط جبهة ما هو نقدي وما هو غير نقدي يمر عرضانياً هذه الأيام في صلب الإسلام، وإن كان محجوباً في كثير من الأحيان، ومع ذلك فهو يحرض صراعات داخلية لا حصر لها. ألا يوجد في الإسلام - مثلما هو الحال في المسيحية واليهودية - إلى جانب كل أشكال التقدم كثير من حالات التراجع؟ ألا يوجد هنا أيضاً فوات حقيقي للتطور وتصلبات ومسارات خاطئة؟ ومثلما تبتعد التمثلات المرفوعة مثالياً للكنيسة كثيراً عن واقع المسيحية الموجودة فعلياً، فإن من الممكن أن ينطبق الأمر على التمثلات المماثلة للإسلام. على أنه من المؤكد أن تجري على الدوام حالات رفع الدين إلى مستوى المثال أو إحاطته بالغموض مع الإصرار على التمجيد، كل ذلك يجري على حساب الدين ذاته، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى الإسلام أم المسيحية. ألا نطالب كلتا الديانتين بالصدق والاستقامة؟ فلماذا لا يسري الأمر عليهما بالذات؟

لا تحريم المساءلة ولا مقارنات عرجاء

ليس لأحد الحق، بما في ذلك أي سلطة دينية أو مدنية، أن يقف سداً أمام البحث عن الحقيقة عن طريق تحريم طرح الأسئلة مباشرة، لمصلحة حقيقة الدين ذاته يتطلب الأمر صدقية لا مراء فيها، ويجب أن تكون مقترنة بالعدالة

والاستقامة. لا يمكن لأحد أن يقمع إلى الأبد النقاش الحر حتى ولو كان ذلك في أنظمة سلطوية وكليانية. حتى البابا ذاته لم يستطع أن يوقف الجدال حول رسامة المرأة عن طريق إعلان «غير قابل للخطأ»، وحتى الخميني ذاته لم يتمكن من أن ينهي الخلاف حول سلمان رشدي بالفتوى التي أصدرها. إذن يجب أن يكون متاحاً لنا أن نستقصي، فيما إذا كان الإسلام يدفع، وإلى أي مدى يدفع ربما عن طريق بعض ممثليه بالتعصب إلى الأعلى (بصورة خاصة ضد الأقليات الدينية) ويشجع الروح القتالية (المطلب الكوني مع مشاريع احتلال العالم) ويجسد التخلف (فيما يخص الديمقراطية وحقوق الإنسان وموقع المرأة).

بهذا الشكل يكون علينا أن نعالج المواجهات التاريخية الكبرى على مستوى العالم بين المسيحية والإسلام: الفتح العربي لمواقع مسيحية في الأصل في الشرق الأوسط وشمال إفريقية، والاحتلال الذي استمر قروناً لإسبانية في الغرب والبلقان في الشرق. على أنه من المؤكد أنه لا يمكن تجاهل انتشار الإسلام في إفريقية السوداء وفي جنوب شرق آسية، إضافة إلى الجهود المبذولة لإقامة «جبهة» إسلامية وحيدة ضد الغرب. وهذا لا يغنينا عن أن نضع الهجومات الأوربية المضادة للإسلام تحت المجهر: إنها لا تمثل فقط الحروب

الصليبية وإعادة الفتح الإسباني، وإنما أيضاً وقبل كل شيء توسع الغرب العسكري - الاقتصادي - الثقافي - الديني في عصر الاستعمار الحديث والإمبريالية - وصولاً إلى حرب العراق القدرية لعام ٢٠٠٣، إنها حرب الكذبات الكبرى.

معتنقو الإسلام (علماء المسلمين) ودارسو الإسلام (المتخصصون الغربيون في الإسلام) ينبغي أن يكونوا على قناعة، من أنهم يمكن أن يتبادلوا حقيقة المعرفة فيما بينهم. بالتأكيد ينبغي على المرء، مثلما يحدث في الأغلب على الجانب المسيحي، بصورة واعية أو غير واعية التساؤل قبل كل شيء عن مقارنة التعصب الإسلامي المزعوم مع «التسامح» الغربي «الإيمان بفلسفة الأنوار»؟ أو مقارنة الروح العسكرية الإسلامية مع «محبة السلام» الغربية المزعومة و«الديمقراطية» أو التخلف الإسلامي مع «التقدم» الغربي و«الحداثة»؟ أو حتى مقارنة الإسلام بوصفه «دين القانون» مع المسيحية بوصفها «دين الحرية».

هنا يعتري المرء في الحال أشكال متعددة من الشكوك إزاء هذه المقارنات العرجاء:

- فيما إذا كانت هنا لا تجري مقارنة صورة مثالية للغرب مع صورة معادية للإسلام؟

- فيما إذا كان لا يوجد في الغرب كثير من التعصب، والروح العسكرية، والتخلف، كما يوجد أيضاً في الإسلام كثير من التسامح ومحبة السلام والتقدم؟

- فيما إذا كانت ترسيمة (صديق - عدو) لا تعني بالنسبة إلينا تحقير الغريب وعزله؟

- فيما إذا كان المطلوب هنا البحث جدياً عن صورة حقيقية للإسلام؟

بصراحة كاملة، المسيحية في أيامنا هذه تعددية أكثر مما تبدو عليه، الإسلام أيضاً تعددي. يعد ويلفريد كانتويل سميث واحداً من أفضل المسيحيين العارفين بالإسلام، وهو يلقي أهمية كبيرة على القول الذي يعلنه دائماً؛ ومفاده أن الإسلام يجب أن يفهم جيداً من قبل المسيحيين تماماً بالقدر الذي يفهمه فيه المسلمون. هذا صحيح؛ غير أن السؤال لا يلبث أن يطرح نفسه: أي المسلمين؟ أيوجد حقاً «مسلمون» أم «إسلام»؟

الصورة الواقعية للإسلام

لا بد أن توجد طريق بين تشويه الإسلام وتعظيمه. على أن الخلل الأساسي المشترك بين هذه الأحكام «الإسلام هو

ذاته في كل مكان وفي كل زمان». وبقدر ما يمكن أن يكون هنالك اختلاف بين الوهابية السعودية وبين رجال الدين الشيعة الإيرانيين، والإخوان المسلمين المصريين، ومقاتلي حماس الفلسطينيين، والمتصوفة الباكستانيين، والمسلمين السود الأمريكيين، يوجد في نظرهم جوهر غير متغير للإسلام، الذي يتميز بصورة راديكالية عن كل ما هو غربي. مقابل هذا التبسيط لا يمكن أن يكون هنالك عون إلا بأخذ وجهتي نظر بالاعتبار الدائم القائم على التميز. إن صورة الإسلام شأنها شأن صورة المسيحية تتقرر بشكل كلي من قبل ديالكتيك مزدوج: ديالكتيك الجوهر والشكل وديالكتيك الجوهر واللاجوهر.

فلنتابع فيما يلي:

جوهر الإسلام في هيئات متبدلة

إذا كان من الممكن أن بعض الإصدارات المبكرة عن الإسلام أظهرت ارتياحاً قائماً على نسيان الحاضر، فإن بعض البحوث الحالية تعاني انعدام التأني بسبب الهوس بالحاضر. من المؤكد أنه لا يمكن أن يساعد في دفع الحوار بين الأديان والثقافات سوى تفسير راهن مزود ببعد تاريخي عميق. من هنا يتحدد مفهوم الإسلام من التعين التاريخي

المتغير. ولا نخطئ إذا قلنا بأن المرء يستطيع أن يقول مع شيء من المبالغة: «لم يكن الإسلام قط ولا في أي مكان هو ذاته». كل عصر لديه صوره الخاصة عن الإسلام وكذلك تحققاته، انطلاقاً من واقع تاريخي معين ومعاش، ومشكل من قوى إقليمية - مجتمعية معينة ومن مجموعات مسلمة، مصوغة مسبقاً مفهومياً ومشكلة لاحقاً من قبل شخصيات تشع طاقة روحية مؤثرة.

بالتأكيد يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في الوقت ذاته: في كل التيارات المتبدلة تاريخياً، وفي التيارات المضادة يصمد فعلياً ما هو ثابت في الصور التاريخية المختلفة والمتبدلة، وفي التحققات المعاشة للإسلام وهو الذي يجب علينا أن نوليه اهتمامنا الكامل في معالجتنا القادمة: المضامين الأساسية والآفاق الأساسية، التي أعطيت من قبل مصدر أول، وهو ليس اختيارياً بحالٍ من الأحوال، وإنما شرَّعته شخصية تاريخية معينة، وجاء به كتاب مقدس. وهذا يبقى معياراً صالحاً. ومثلما هو الحال في تاريخ المسيحية يوجد في تاريخ الإسلام فعلياً ما هو ثابت، نعم «جوهر»، ماهية مشتركة، أو هذا ما يطلق عليه الإنسان بصورة دائمة. أما أشكال سوء الفهم المرتبطة بهذه المفاهيم التقليدية فهي معروفة بالنسبة إليَّ تماماً. لهذا السبب أضيف

حالاً كرد على كل هؤلاء «الماهويين» المتصلبين: هذا الجوهر الباقي يتجلى فقط فيما يتغيَّر.

ما يصح بالنسبة إلى المسيحية يصح كذلك بالنسبة إلى الإسلام: يوجد ما له صلة بالهوية، لكن فقط فيما هو قابل للتغير. استمرارية، لكن فقط في الحدَث. ديمومة، لكن فقط في الظاهرة المتبدلة. باختصار: لا يتجلى «جوهر» الإسلام في الثبات الميتافيزيقي والتمايز، وإنما في شكل الظاهرة التاريخية المتحولة بصورة مستمرة أو «الهيئة». لكي يبدو للعيان جوهر الإسلام الثابت، ليس الراسخ المتصلب، وإنما الجوهر الأصلي المتشكل ديناميكياً، على المرء أن يوجه اهتمامه إلى شكل الظاهرة التاريخية المتغيرة له؛ أي إلى «هيئته».

يمكن أن تكون مثل طريقة التأمل التاريخية هذه بالنسبة إلى بعض المسلمين بداية (كما بالنسبة إلى بعض المسيحيين) غير عادية. لكن فقط عندما ننظر إلى «جوهر» الإسلام في أشكال الظواهر التاريخية المتبدلة، عند ذلك نستطيع أن ندرك الإسلام فعلياً: ليس إسلاماً مثالياً في أجواء التمايز لنظرية فلسفية أو لاهوتية أو حقوقية، وإنما الإسلام الموجود فعلياً، الإسلام الواقعي في وسط هذا العالم وفي التاريخ العالمي. في جملة واحدة: للإسلام الفعلي جوهر يحدث في هيئات تاريخية متعددة.

وهذا يلقي الضوء: لا يوجد على الإطلاق جوهر إسلام «في ذاته»، منعزل «صاف كيماوياً» مقطر من حركة التاريخ؛ الجوهر والهيئة لا يمكن أن ينفصلا بصورة نقية. ولكن في الوقت ذاته إنه لمن المهم: أن ينظر إلى كل من الجوهر والهيئة في تمايزهما، وإلا فكيف يمكن «للمصلحين» الإسلاميين، الذين وجدوا في جميع الأزمنة وهم يوجدون الآن، أن يحددوا ما هو ثابت في حركة تغير الهيئة، وكيف يقيِّمون بشكل مختلف شكل الظاهرة التاريخية العيانية؟ كيف ينبغي أن يكون للمسلمين ولغير المسلمين هيئة ومعيار تحت التصرف ليحددوا ما هو في الهيئة التجريبية - التاريخية للإسلام قابل للتقدير وماذا يجب أن يرفض منها؟ إلى أي درجة تصل أهمية ذلك، هذا ما يتجلى، عندما ندرس الأفق الثاني.

«جوهر الإسلام» و«اغترابه» عنه

لا يعاني عدد قليل فقط من المسلمين (وحتى المسيحيين) من أن الإسلام (وأيضاً المسيحية) يمكن أن يشوَّه، أو يزوَّر وحتى يساء استخدامه، سواء أكان ذلك في الحياة اليومية أم في الأمور السياسية العظمى. في كثير من الأحيان وضع الإسلام، وكذلك المسيحية، ويوضعان في الخدمة من قبل الحكام كآلة سياسية بدلاً من أن يعاشا على

أنهما نظام أخلاقي وحالة إيمان. وفي عدد كبير من الحالات بدلاً من أن ينشر كل من الإسلام والمسيحية العدالة والتعامل الإنساني، نجد أنهما بذرا بذور الكره والعنف، يشجعان القمع والحروب ويشرعانهما.

أيضاً لا ينبغي على الناس ذوي التوجه الديني أن ينكروا: أن الدين بوصفه ظاهرة إنسانية ثنائي التأثير. وهذا يعني: في أي دين لا يوجد فقط جوهر وهيئة؛ ما هو راسخ وما هو متغير، وإنما يوجد الخير ونقيض الخير، ما هو مجلبة للخير، وما هو مجلبة للبؤس من الجوهر و«اللاجوهر»، وهما منسوجان بعضهما في بعض دون أن يكون بالإمكان فصلهما بصورة جلية وحاسمة من خلال الإنسان ذاته الذي يتصف عميقاً بازدواجية المشاعر والرؤى. لأنه حتى مع أكثر القوى جوهرية، الإنجيل أو القرآن يمكن أن يدفع إلى الأمام. حتى إن المبدأ الأفضل، بما في ذلك المثالية الدينية والاستعداد الطوعي للتضحية، يمكن أن يساء استخدامها، وهي قابلة لأن تضع نفسها في خدمة الشر. أيضاً يبرهن كثير من ممثلي الجشع إلى السلطة وعديمي الرؤية في الديانتين الاثنتين ومع أكثر المبادئ قدسية أن الذنب والخطيئة ممكنان شخصياً و«بنيوياً»، في جملة واحدة: يمكن للجوهر الفعلي للإسلام أن ينقلب إلى نقيضه. وهذا لا يمكن

أن يقال عنه بأنه جوهره المشرعن، وإنما غير المشرعن، ليس جوهره الحقيقي، وإنما هو جوهره المقلوب.

هنالك ظل شديد السواد يصاحب جوهر كل دين كما يصاحب نقيضه، ولا يمكن التخلص منهما عبر مراحل التاريخ جميعها. وهذا هو السبب الذي يجعل المرء يمكن أن ينظر إلى تاريخ أي دين ضمن علامة إيجابية أو سلبية. هذا أمر واضح، وإن كانت الشكوى العلنية فيما يخص الإسلام أقل بكثير بسبب خطورة الأمر مقارنة مع المسيحية. ومثلما هو الحال في المسيحية يمكن أن نعرف أيضاً في الإسلام في مسار الأزمنة ليس فقط تشكيل التاريخ والتغلب عليه، وإنما أيضاً الانهيار والاستسلام أمام التاريخ. يمكن للدين أن يتراجع بواسطة وسائل زمنية فعلياً لأداة سلطة عاملة، وإلى بيرقراطية تدور حول نفسها، كما يمكن أن يصير إلى تدين تقليدي سطحي فقير الماهية. على أن كل من يريد، كمؤرخ أو مراسل حربي، أن يتثبت مما هو سلبي، يستطيع بسهولة أن يكتب «التاريخ الإجرامي» للمسيحية كما للإسلام، ويفتقد كلياً ما هو جوهري في الإسلام أمام الدم النقي والدموع، أمام القتل وأعمال الانتقام، أمام الضلالات والتطورات المفتقدة.

هذا كله يعني:

ليس فقط التاريخية بصورة عامة، وإنما قابلية تأثر الإسلام التاريخية من خلال ما هو معادٍ للإسلام يصبح في التاريخ الإسلامي المبكر واحدة من المعطيات الأساسية التي يشكو منها كثير من المسلمين (ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلوا غيلة...) وما ينتقده في السر هذه الأيام عدد من المسلمين، يتفوه به بعضهم علناً. وحيث لا يسمح نظام سلطوي سياسي بالهجرة الخارجية من الدين، فإن هروباً إلى الداخل يكون البديل. إن أصواتاً نقدية حديثة تصدر من سلمان رشدي حتى تسليمة نسرين، مهما كانت أحادية الجانب، متعالية أو سيئة المقاصد، أجل، ومهما بدت أهلاً للعن من قبل كثير من المسلمين، فإنه يجب أن ينظر إليها جدياً. وسيكون من الخطأ مقابلتها فقط بالتسويغ الكسول بالاضطهاد وحتى بإنذارات القتل بدلاً من المحاججة الحقيقية، والدفاع عن الإيمان الإسلامي وتسويغه معرفياً، وبدلاً من أن تعرف كيف تميز بين الاتهامات المعللة وغير المعللة، دون أن تتغاضى عن المطالبة بالإصلاحات الجذرية.

الوضع الراهن بوصفه مقياساً

ما قلته بصورة سريعة عن المسيحية، يصح أيضاً هنا: ضد كل إحباط أو انسحاب من الإصلاحات في جميع الأديان، والذين يتملكهم الشعور في بعض الأحيان بأن

مثلهم مثل الكلاب التي تنبح على القمر أو كمن ينطح الجدار برأسه، وفي هذا المقام أريد، بوصفي لاهوتياً مسكونياً ملتزماً بصلاح جميع الأديان، أن أكون عوناً في مجال تشخيص الحاضر من خلال تأمل تحليلي، يشهِّر - حيث يكون ذلك ضرورياً - بالحالات المزرية، ويسمي المسؤولين عن ذلك بأسمائهم، ويشدد الضغط من أجل الإصلاح، ويشجع على إحداث التغيرات البنيوية.

مما لا شك فيه أننا لا يمكن أن نكون في حال من الرضا عن الوضع الراهن في هذا العصر من التحولات الكبرى في أي دين من الأديان؛ سواء أكان ذلك في اليهودية أم المسيحية أم الإسلام (حتى ولا في الديانات الهندية أو ذوات الأصول الصينية)، ففي جميع الأمكنة والأزمنة تطرح أسئلة موازية بصورة مدهشة بالنظر إلى تجديدات مقبلة. ومع كل حالات اللاسامية الكريهة أو الأشكال المتنامية للرعب من الإسلام، ستجري في هذا الزمن القادم مساءلة محبي السامية النقديين أو محبي الإسلام (لا يكاد يتحدث المرء عن محبي المسيحية)، أكثر من أولئك الأصدقاء، الحقيقيين، المخلصين لليهودية والإسلام.

يقف الإسلام في هذه المرحلة الانتقالية من التاريخ العالمي - شأنه شأن اليهودية والمسيحية - في صراع أساسي

بين التقليد والتجديد، علماً بأنه لا يخفى على أحد الكيفية التي تحققها هذه الأمور ويتم حسمها. والمرء يتساءل فيما يخص الإسلام، تماماً مثلما هو الحال في اليهودية والمسيحية: هل سينجح هذا الدين مع كل هذه الفروق والصراعات، مع كل الاتجاهات المختلفة والمدارس المتعددة، مع كل هذه الصراعات بين التقليديين والتحديثيين، في المحافظة على «الماهية» الدينية؛ أي على «جوهره»، وأن (يعيد تشكيل) ذاته من أجل جيل جديد؟ هل يتاح للشعوب الإسلامية، التي دخلت في أزمة وجود لا يمكن تجاهلها في ذروة الحداثة من خلال المواجهة مع الإمبريالية الغربية ومع الكولونيالية، مع العلوم الغربية ومع الاقتصاد، التقنية والديمقراطية، أن تقبل تحديات المرحلة العالمية الحديثة، وأن تطبق بفعالية صيغة جديدة ما بعد حداثية للإسلام؟ في هذا العالم المعولم تقف جميع الديانات الكبرى في وضع انتقالي انطلاقاً من أزمة الحداثة، أو المسماة في ما بعد الحداثة الماثلة، وهي من ثم معرضة لمشكلات بنيوية متشابهة، مثلما تبين ذلك في دراساتي حول اليهودية والمسيحية.

أن نفهم الإسلام من الداخل

كان التطور الخصب لعلم الإسلاميات المعروف بالنسبة إلى من هم محايدون، والذي صار يمارس بصورة مشتركة

أكثر فأكثر من قبل علماء غربيين ومسلمين - مع التقييم الإيجابي الاقتصادي والسياسي للشعوب الإسلامية وللهجرة الإسلامية في أوربة الغربية وفي أمريكة - الشرط الضروري بالنسبة إلى التوجه الجديد المرحلي للكنيسة الكاثوليكية، الذي تم توثيقه في الإعلان الديني للمجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٥)، والذي أخذ تعبيره بعد المجمع في اجتماعات إسلامية - مسيحية رسمية وغير رسمية. حتى إن المجلس العالمي للكنائس بذل جهوداً نتيجة لذلك من أجل الانفتاح على الديانات الأخرى، كما نشر لأول مرة في عام **١٩٧٩** «الخطوط الهادية للحوار مع أناس وديانات مختلفة وإيديولوجيات مغايرة».

إنه لمن الواضح: بأنه لا توجد في المسيحية عودة إلى الحالة التبريرية القديمة وإلى عقلية المماحكة، رغبة منها في تحصين نفسها ضد التشويه. من جانب آخر نجد أن العزلة التي استمرت قروناً، إضافة إلى الجهل بالآخر عند كل طرف، كل ذلك يصبح بالنسبة إلى كثير من الناس غير ممكن: فالكتب ووسائل الإعلام، إضافة إلى وجود مئات الآلاف من معتنقي العقائد المغايرة في الدولة ذاتها: هذه المسائل تفعل فعلها بالتأكيد. وشيئاً فشيئاً، ومع كل أحداث العنف والمؤامرات والحروب، يجافي احتقار الديانات

الأخرى الفهم والمنطق ويبتعد الجهل عن المعلومة، كما يجافي التبشير مسألة الحوار. من البدهي أنه عندما يغير الغرب موقفه من العالم الإسلامي، فإن هذا العالم لا بد أن يغير موقفه من الغرب إن آجلاً أو عاجلاً.

يطرح اللاهوتي المسيحي أسئلته لاستيضاح مشكلات ليس انطلاقاً من موقع المحصَّن، وإنما فقط «من الخارج»، في موضوعية حريصة على إقامة مسافة. أكثر من ذلك سوف يتبصر دائماً كمرتبك الأسئلة المطروحة على دينه الخاص، مما يؤدي إلى أن يصوغها بوضوح وشفافية. في كثير من الأحيان يتأمل المسيحيون (وفي كثير من الأحيان المسلمون أنفسهم) «الإسلام» دائماً بوصفه عظمة متصلبة، أو منظومة دينية مغلقة، بدلاً من أن ينظروا إليه بوصفه ديناً حياً، أو حركة دينية، علينا أن ننظر إليها، بأنها أجرت عبر القرون في تغير متواصل تبدلاً في البارادايم متناسباً مع المراحل التاريخية، وتنامت إلى تغيُّر داخلي كبير، كما طبعت الناس المختلفين بطيف واسع من المواقف والمشاعر.

يجب أن تدور المسألة الآن حول أن نفهم من الداخل ولو ببطء، بقدر ما نستطيع، لماذا يرى المسلمون الإله والعالم، والعبادة وخدمة البشر، والسياسة، والحق والفن

بعيون أخرى، ويعيشونها بقلب آخر غير ما يراه ويعيشه المسيحيون؟

كمسألة أولى ينبغي أن يكون واضحاً لدى أي دارس بأن دين الإسلام ليس سهلاً حتى في أيامنا هذه بالنسبة إلى عدد كبير من المسلمين أن يكون عنصراً جزئياً من عناصر الحياة، كما أنه ليس سهلاً ذلك الذي يطلق العلمانيون عليه «بالعامل الديني» إلى جانب «العوامل الثقافية» الأخرى. كلا، إن الحياة والدين، والدين والثقافة كلها منسوجة بعضها ضمن بعض بالنسبة إلى المؤمنين بالإسلام، وكذلك الدين والسياسة. الإسلام يتبنى رؤية للحياة شاملة وكلية، موقفاً يتخلل الحياة بكليتها، كما يريد أن يحدد طريقاً لا محيد عنه للحياة. أما إلى أي مدى يمكن أن يتحقق ذلك في وضع تاريخي جديد للعالم، فهذا ما علينا أن نختبره فيما بعد.

إنني أريد في عصر الوعي المسكوني المستيقظ - منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ (نيويورك وواشنطن)، والحادي عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٤ (مدريد) أكثر من أي وقت مضى - أن أطالب بمسؤولية مشتركة مسكونية للكل من أجل الكل، بصورة خاصة بالنسبة إلى الحاكمين والسياسيين، ولا سيما بسبب الموقف السياسي العالمي المتأزم من خلال السياسة المخفقة كلياً. وانطلاقاً

من هذه المسؤولية المشتركة بين الأديان فإن كل واحد منا معني أيضاً بالمسيرة الصحيحة للإسلام. إن تقديراً عالياً للإسلام مقروناً بالإعجاب إزاء إنجازاته الثقافية الكبرى والروحية عبر أربعة عشر قرناً، ينبغي أن يشكل القاعدة لإنجاز طموح إصلاحي محدد انطلاقاً من جوهر الإسلام، في تضامنٍ ما بين ديني مع عدد لا يحصى من المسلمات والمسلمين، الذين يستشعرون بصورة غير متساوية وجودياً ضغط الإصلاح مثلما يبحث عنه لاهوتي مسيحي.

تبدل البارادايم
في اليهودية والمسيحية والإسلام

نحن جميعاً في هذه الأيام في قلب الخطر، إن تركنا أنفسنا كي تغمرنا الطوفانات الهائلة للمعلومة، فنفقد بذلك الاتجاه. حتى إن المرء يمكن أن يسمع في بعض الأحيان من علماء الأديان، أن المرء في تخصصه الخاص من النادر أن يرى الغابة وهو إزاء الأشجار المتعددة. وهكذا يركز بعض الدارسين - مثلما هو الحال في علم الاجتماع - على دراسات جزئية ولا يعودون مستعدين، أو لا يكونون في وضع يتيح لهم أن يفكروا في علاقات أكثر شمولاً. ومن هنا فإن اختصاصات جديدة ضرورية، لكي تلامس التغيرات الكثيرة.

وأنا أحاول أن أقدم لكم توجهاً أساسياً بعينه حول الديانات الإبراهيمية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلام. أريد أن أعالج ثلاثة مركبات من الأسئلة:

١- المركز الباقي والأساس: ما الذي ينبغي أن يحافظ عليه؟

٢- التحولات المرحلية: ما يمكن أن يتغير؟

٣- التحديات الحالية: ما المهمة الملحة؟

المركز الباقي والأساس

ما الذي ينبغي أن يحافظ عليه في أي من دياناتنا، ويجب أن يحافظ عليه حتماً؟

في الديانات الثلاث التي جاء بها الأنبياء مواقف متطرفة؛ بعض منهم يقولون: «لا شيء ينبغي أن يحافظ عليه»، غير أن آخرين يرون: «كل شيء يجب أن يحافظ عليه».

- «لا شيء» يجب أن يحافظ عليه، هذا ما يقوله تماماً المسيحيون العلمانيون، وهم لا يؤمنون لا بالإله ولا بابن الله، وهم يتجاهلون الكنيسة ويتنازلون عن المواعظ والمقدسات... في أحسن الحالات يقدرون المسيحية بوصفها إرثاً ثقافياً: الكاتدرائيات، يوهان سباستيان باخ، وجماليات إقامة الطقوس الدينية، على أنه من المفارقة أنهم يقدرون البابا بوصفه عمود النظام المؤسس، علماً بأنهم يرفضون كلياً وبالبداهة أخلاقه حول الجنس، كما يرفضون سلطته لذاتها.

- «لا شيء» ينبغي أن يحافظ عليه، هذا ما يقوله كلياً اليهود العلمانيون؛ فهم لا يقيمون أي اعتبار لإله أبراهام

ولا للآباء، وهم لا يؤمنون بوعوده، ويتجاهلون الكنس والصلوات وكذلك الطقوس، كما يسخرون من المتدينين المتزمتين.

مقابل اليهودية الفارغة دينيا وجدوا دينا بديلا حديثا: دولة إسرائيل والاعتماد على الهولوكوست، وهو الذي خلق لليهود العلمانيين هوية دينية وتماسكاً، كما يبدو أنه ليس من النادر أن يسوغ إرهاب الدولة ضد غير اليهود والقائم على احتقار البشر.

- «لا شيء» ينبغي أن يحافظ عليه، هذا ما يقوله أيضاً كلياً المسلمون العلمانيون: وهم لا يؤمنون بالله، ولا يقرؤون القرآن، ومحمد بالنسبة إليهم ليس نبياً، أما الأركان الخمسة للإسلام فليس لها أي دور بالنسبة إليهم، وهم يرفضون الشريعة بصورة قاطعة.

الإسلام في أحسن الأحوال، دينياً أفرغ من مضمونه، لكي يستخدم أداة بالنسبة إلى الإسلام السياسي، أو القومية العربية أو حتى الوطنية.

من هنا يمكن أن نفهم الصرخة المعاكسة على أنها رد فعل على «لا شيء يبقى» لتصبح أكثر قوة، وستعلن: «كل شيء يجب أن يبقى». كل شيء ينبغي أن يبقى مثلما هو، ومثلما كان دائماً: «لا يجوز أن ينزع حجر واحد من صرح

العقيدة الكاثوليكية العظيمة، وإلا فإن كامل الصرح سيتعرض للترنح»، هذا ما يعلنه الأصوليون المرتبطون بروما، وهم يغمطون من قيمة الإصلاح وما نشأ عنه من عصر الأنوار بوصفه «الابتعاد عن التراث الإغريقي».

«ولا كلمة واحدة يجوز أن تهمل من الهالاخا، فوراء كل كلمة تكمن إرادة (أدوناي)» هذا ما يصر عليه المتزمتون اليهود.

«ولا سورة من القرآن يمكن تجاهلها، كل سورة إنما هي بالطريقة ذاتها كلمة الله المباشرة». هذا ما يؤكد عليه المسلمون المتسيسون.

هنا توجد صراعات في كل مكان معلنة ومبرمجة، ليس فقط بين الديانات الثلاث، وإنما - وقبل كل شيء - ضمن الديانات الثلاث، حيث تمثل هذه المواقف دائماً بصورة صراعية، وأحياناً عدوانية، وفي كثير من الأحيان تتواجه هذه المواقف المتطرفة بصورة عنيفة فيما بينها.

لكن إذا أردنا الحق فإن الواقع ليس هكذا مظلماً بشكل كلي؛ فالمواقف المتطرفة لا تشكل الأكثرية في معظم البلدان، خاصة إذا لم تكن مشحونة من خلال العوامل السياسية، والاقتصادية والاجتماعية. ولا يجوز أن ننسى بأنه يوجد دائماً - وهذا يختلف كثيراً حسب البلدان والأزمنة - عدد لا يستهان

به من اليهود والمسيحيين والمسلمين، الذين -مع أنهم في دياناتهم لا مبالون أو خاملون أو جهلاء - لا يريدون إطلاقاً أن يتخلوا عن كل شيء في معتقداتهم أو ما يرتبط بها من أنماط الحياة التي يعيشونها، سواء أكانوا يهوداً، أم مسيحيين أم مسلمين. من جهة ثانية نجد أن أولئك الذين هم غير مستعدين للمحافظة على كل شيء، غير مستعدين لابتلاع كامل العقائد الهللنية الكاثوليكية وقواعد الأخلاق المنطلقة من التعاليم البابوية، كما أن البروتستانتيين غير مستعدين لأخذ كل جملة في الكتاب المقدس حرفياً، دون أن ننسى أن اليهود ليسوا متمسكين كلياً بالهالاخا، حتى إن المسلمين أنفسهم لا يلتزمون بصورة حرفية بجميع تعاليم الشريعة.

ومثلما هو الحال دائماً: إذا لم يتمعن المرء في أي من التشكيلات أو الصياغات التاريخية المتأخرة، وتأمل فقط المنطلقات الأصلية، الوثائق الأولى؛ أي النصوص المقدسة «لكل دين على حدة» - التوراة العبري والعهد الجديد والقرآن - عند ذلك لا يكون ثمة شك بأن «الثابت الباقي» (أي ما يجب أن يدوم) في الدين المعني لا يتطابق ببساطة مع «ما هو قائم» (أي ما هو موجود في الوقت الحاضر)، وأن ذلك الذي يشكِّل «نواة» و«ماهية» و«جوهر» هذا الدين متجدد من قبل «النصوص المقدسة» للدين المقصود

بالدراسة. فالمسألة إذن تدور هنا حول سؤال عملي بالمطلق: ما الذي ينبغي أن يكون في دياناتنا - أو في ديننا الخاص بنا - صالحاً لا يطاله التغير وملزماً بصورة دائمة؟ ليس كل شيء يجب أن يبقى محافظاً عليه، لكن بالتأكيد يجب أن تبقى ماهية الإيمان، مركز كل من الدين المعني وأساسه، ونصه المقدس، وعقيدته. والآن إذا طرحنا سؤالاً عملياً فستكون الإجابة عنه قصيرة جداً من حيث المبدأ:

١- ما الذي ينبغي أن يحافظ عليه في المسيحية، عندما لا ينبغي أن نخسر روحها؟

الجواب: إن نقداً تاريخياً، أدبياً، سوسيولوجياً للكتاب المقدس سوف يتعرض بالنقد لكثير من النصوص، وسوف يفسر ويختصر، غير أنه انطلاقاً من أسس الإيمان المسيحي المتوارث وممن أصبحوا بسطوة التاريخ مصدر الثقة، ومن العهد الجديد (منظوراً إليه في سياق التوراة العبري) فإن مضمون الاعتقاد المركزي واضح، ألا وهو يسوع المسيح، وهو بوصفه المسيح وابن الله الواحد لإبراهيم، وهو أيضاً فاعل الآن من خلال الروح القدس: إذ لا يوجد إيمان مسيحي، كما لا توجد ديانة مسيحية خارج هذا الاعتقاد: «يسوع هو المسيح، إله، ابن الله». واسم يسوع المسيح يحدد (دون أن يفهم ذلك) «مركز العهد الجديد».

٢- ما الذي يجب أن يحافظ عليه في اليهودية عندما لا ينبغي أن تخسر «جوهرها»؟

الجواب: إن نقداً تاريخياً وأدبياً وسوسيولوجياً يمارس مراجعة جوهرية من شأنها أن تفسر وتختصر، غير أنه انطلاقاً من أسس الإيمان المتداول تاريخياً، ومن الذين أصبحوا بحكم سطوة التاريخ مصدر ثقة، وانطلاقاً من التوراة العبري فإن مضمون الاعتقاد المركزي واضح، وهو الإله الواحد والشعب الواحد إسرائيل، ما من إيمان إسرائيلي ولا توراة عبرية، ولا ديانة يهودية خارج هذا الاعتقاد: يهوه (أدوناي) هو إله إسرائيل، وإسرائيل هي شعبه (وأرضه).

٣- في النهاية ما الذي يجب أن يبقى محافظاً عليه في الإسلام، عندما ينبغي أن يظل «الإسلام» بالمعنى الحرفي «التسليم» أو «الخضوع لله»؟

الجواب: لقد استمر طويلاً مسار جمع السور المتعددة في القرآن وتنظيمها وترتيبها. ومع ذلك فإن من الأكيد بالنسبة إلى كل مسلم مؤمن أن القرآن كلام الله وكتابه. وحتى عندما يرى المسلمون أن ثمة فرقاً بين السور المكية والسور المدنية، وعندما يجدون أنفسهم ملزمين بأن يأخذوا بالاعتبار في كل مكان خلفيات الوحي من أجل تفسير الآيات، فإن

الرسالة المركزية للقرآن واضحة بصورة كاملة ولا لبس فيها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وبهذا العرض أصبح واضحاً ما هو المشترك وما هو المختلف بين الأديان الثلاثة (أحياناً يصاب الإنسان بالإزعاج، لأن أولئك الذين لم يدرسوا الديانات إلا أقل القليل، ومع ذلك يتهمون الآخرين، بأنهم لم يتعرفوا الفروق فيما بينها).

بإيجاز: ما هو خاص ومحافظ عليه في الديانات التوحيدية الثلاث هو في الوقت ذاته شيء ما مشترك وشيء مختلف.

ما هو مشترك بين اليهودية والمسيحية والإسلام:

الإيمان بالإله الواحد الأوحد لإبراهيم، الخالق الرحمن الرحيم، حافظ وحاكم على جميع الناس.

ما يفرق بين هذه الديانات:

بالنسبة إلى اليهودية: إسرائيل بوصفها شعب الله وأرضه.

بالنسبة إلى المسيحية: يسوع المسيح بوصفه الإله المسيح والابن.

بالنسبة إلى الإسلام: القرآن بوصفه كلمة الله وكتابه.

انطلاقاً من المركز الثابت للديانات الثلاث يتم تفسير كل من اليهودية والمسيحية وكذلك الإسلام:

- الأصل منذ أقدم الأزمنة،
- الاستمرارية في تاريخه الطويل عبر القرون،
- الهوية مع أن ثمة اختلافاً في اللغات، والشعوب، والحضارات والأمم.

لكن ما الذي يعقد المسألة الآن بشكل كبير:

هذا المركز، وهذا الأساس، وماهية الاعتقاد هذه، كلها تقدم بشكل مجرد ومعزول، وإنما كانت تفسر دائماً ومن جديد تبعاً للمتطلبات المتحولة للعصر، كما كانت تطبق عملياً تبعاً لذلك. وإلى حد كبير يكون ما هو لاهوتي نسقياً وكذلك العرض التسلسلي نسقياً، لا يمكن تأسيسه بصورة مقنعة دونما الدعم اللاهوتي، ومن هنا لزم توحيدهما دونما قيد أو شرط.

الانقلابات المرحلية والتحديات

دائماً وفي كل مرة تفسر من جديد وتطبق أوضاع مرحلية جديدة للزمن - للمجتمع بصورة عامة، لمجموعة تؤمن بمعتقد واحد، للتبشير بالمعتقد ولمراجعته - هذا هو ذات

المركز. وهذا التاريخ يتحقق دراماتيكياً وبصورة مدهشة في اليهودية والمسيحية والإسلام. لقد حققت جماعة الإيمان، التي كانت في البداية صغيرة ومن ثم - في حال المسيحية والإسلام - نمت بصورة سريعة، حققت في الإجابة عن تحديات كبيرة مرتبطة بتاريخ العالم سلسلة كاملة من التغيرات الدينية المؤسسة، أجل، وعلى المدى الطويل، تحول ثوري في النماذج (البارادايم Paradigmen).

ولعدم الإطالة أقول: إن نظرية البارادايم، مثلما وضع أساسها توماس كوهن في كتابه «بنية الثورة العلمية»، ومثلما طبقتها على تاريخ الديانات، يستطيع أن يفهمها المرء تماماً بشكل جيد، عندما يكون على معرفة بتطبيقات ونتائج الانعطافة الكوبرنيكية: الشمس والقمر والنجوم تبقى كما هي، غير أن نظرتنا إليها تتغير كلياً. وهنا تدور المسألة حول صورتين مختلفتين عن الواقع، أي حول نموذجين (بارادايم) مختلفين، وهما يتحددان بوصفهما «وضعاً كلياً من المعتقدات والقيم والتقنيات تتشارك فيها جماعة معطاة» (توماس كوهن). وأيضاً في الديانات الإبراهيمية الثلاث لا يتغيَّر فقط المركز والثوابت، وإنما تتغير الرؤية والتقديرات أيضاً.

ليست نظرية البارادايم بالنسبة إلينا سوى إطار تأويلي، أما البسط التاريخي - المادي وكذلك التحليلي للحاضر

فيبين قدرتها الكاملة في إنارة موضوعها، وهذا ما بينته في دراسات مستفيضة حول المسيحية واليهودية والإسلام، وإلى حد ما في «اقتفاء الأثر» فيما يخص الهندوسية والبوذية والديانة الصينية أيضاً. إن التحليل التاريخي الصارم لنماذج (بارادايم) دين بعينه، أو تحليل البارادايمات الجزئية، أو حتى تحليل الأوضاع الكاملة لمرحلة تاريخية، يفيد في معرفة التوجه. إنه إمكانية من أجل إجراء انتقاء بالنسبة إلى إلقاء نظرة كلية على تاريخ دين ما، شاملة ما أمكن وفي الوقت ذاته دقيقة. لا شك بأن تحصيل البارادايمات يمكِّن من استخلاص البنى التاريخية الكبرى وإدراك الانتقالات: من خلال التركيز في الوقت ذاته على الثوابت المؤسسة وعلى التحولات الحاسمة. وعلى كل حال فهكذا تتاح كتابة الانقطاعات في التاريخ العالمي وتسجيل النماذج الأساسية المرحلية المنطلقة منها للدين المعني، والتي تحدد موقع هذا الدين بوصفه مثلاً أعلى للإدراك. لا يمكن أن يُقال عن أي دين بأنه عظمة ثابتة، إذ يعني ذلك أن كل شيء كان هكذا، مثلما هو الحال الآن، بل إنه أكثر من ذلك واقع يطور نفسه بصورة خفية، واقع حقق أوضاعاً كاملة مرحلية مختلفة.

علينا إذن أن نبحث عن تحليل تاريخي - نسقي لأوضاع كلية مرحلية على خلفية تاريخ حافل بالأحداث. وفي كتابي

(المسيحية) استخلصت البارادايمات العامة التالية في تاريخ المسيحية (انظر إلى الترسيمة فيه):

١- باراديم القيامة - اليهودية للمسيحية الأولى،

٢- باراديم الهللنية - المسكونية للعصور القديمة المسيحية،

٣- باراديم الكاثوليكية - اللاتينية للعصر الوسيط،

٤- باراديم الإنجيلية - البروتستانتية للإصلاح،

٥- باراديم التقدم - العقلانية للحداثة،

٦- باراديم المسكونية لما بعد الحداثة.

فيما يخص المسيحية لا يعرف عدد كبير من المسيحيين:

- أن المسيحية نشأت في باراديم مسيحية يهودية.
- أن هذه المسيحية حوصرت باكراً بطبيعة الحال من قبل باراديم هلليني - إغريقي، ولاحقاً من قبل باراديم سلافي (الأرثوذكسية الشرقية).
- أن باراديماً كاثوليكياً تحقق نمطياً من قبل البابوات في الغرب إبان القرون التي تلت انعطافة سقوط القسطنطينية، وأن هذا البارادايم تصاعد في القرن الحادي عشر إلى انقسام الكنيستين، الغربية والشرقية.

- أن هذا البارادايم الكاثوليكي المرتبط بروما العصر الوسيط قد استبدل في القرن السادس عشر في انقلاب ثوري شمل أجزاء من أوربة ومن ثم أمريكة من خلال الحركة البروتستانتية - الإصلاحية.

- غير أن هذا البارادايم البروتستانتي - الإصلاحي، وكذلك البارادايم الكاثوليكي في روما قد تعرضا إلى تحدٍّ كبير من خلال بارادايم التنوير للحداثة في الفلسفة، والعلوم الطبيعية، ونظام الدولة ونظام المجتمع.

- أننا نجد أنفسنا متورطين بعد حربين عالميتين وبعد الأنظمة التوتاليتارية في مرحلة انتقالية وفي وضع ما بعد حداثي غير قابل للتوصيف بصورة واضحة.

وبذلك تتراءى لنا رؤية أولى مع التحدي المصاحب لها: يمكن للبارادايمات أن تحافظ على بقائها وصولاً إلى الحاضر (باستثناء البارادايم الأول). والمسألة تختلف كثيراً في العلوم الطبيعية «الدقيقة»: هنا يمكن للبارادايم القديم (مثال على ذلك بارادايم بطليموس) إما أن يصادق عليه وإما أن يُنقَض تجريبياً بمساعدة الرياضيات والتجربة، كما يمكن أن تستخلص النتائج قسراً لمصلحة البارادايم

الجديد (بارادايم كوبرنيكوس) على المدى الطويل من خلال البرهان. أما في مجال الدين (وكذلك أيضاً في مجال الفن) فإن المسألة تختلف كثيراً: في مسائل الإيمان، العادات والطقوس (مثلما هو الحال بين روما الغربية وروما الشرقية، أو بين روما ولوثر) لا يمكن أن يجسم شيء رياضياً - تجريبياً، لذلك فإن البارادايمات القديمة لا تختفي على الإطلاق وبالضرورة في مجال الدين. أكثر من ذلك لا يمكن لهذه البارادايمات أن تستمر في البقاء لقرون طويلة إلى جانب البارادايمات الحديثة: أي إن الجديد يبقى (الإصلاحي أو الحديث) إلى جانب القديم (الكنسي القديم والكنسي الوسيط). ولكي نتمكن من إجراء تقويم صحيح لواقع الأديان فإن هذا الإصرار وهذا التنافس فيما بين البارادايمات المختلفة سيكون لهما شأن كبير.

لقد استخلصت في كتابي (اليهودية) البارادايمات الجزئية في التاريخ اليهودي (انظر الترسيمة فيه):

١- بارادايم القبائل لعصور ما قبل الدولة.

٢- بارادايم الدولة لعصور الملوك.

٣- بارادايم التيوقراطية اليهودية ما بعد النفي.

٤- بارادايم الرابي - السبناغوغي للعصر الوسيط.

٥- باراديم التمثل للحداثة.

٦- باراديم المسكونية لما بعد - الحداثة؟

كثير من اليهود لا يجرون كشف حساب، ومن ثمَّ لا يقرون بأن إسرائيل لم تبدأ كدولة، وإنما كاتحاد قبائل (١). على أن أول دولة نشأت كانت نحو العام ١٠٠٠ق.م. وقد تحولت الدولة في التاريخ إلى واقع من خلال الملك داوود مع هيكل مركزي بني من قبل ابنه سليمان (٢). غير أن باراديم الدولة الذي بناه داوود ما لبث أن انهار بعد موت سليمان وانقسام الدولة إلى دولتين: دولة إسرائيل في الشمال ودولة يهودا في الجنوب. فيما بعد احتلت الدولتان من قبل الآشوريين والبابليين. بعد النفي البابلي وصل الأمر إلى وضع جديد يطلق عليه من دون ملك: وهذا هو التمركز على الهيكل الثاني، عصر الكهنة وكبار رجال الدين، حكم طبقة دينية. في هذا الزمن تم جمع النصوص المقدسة (التوراة والهالاخا) (٣). بعد السيطرة الفارسية جاء عصر الإمبراطورية الرومانية، التي خاض اليهود ضدها حربين خاسرتين. وهكذا حل زمن زوال الهيكل الثاني، ودخل زمن تأسيس وضع جديد تميز بأنه بلا مملكة، وبلا هيكل وبلا كهنة، وتمركز على الأحبار وعلى السيناغوغن، وهو الزمن الذي أنجز فيه التراث (المشنا والتلمود). وقد وصل العصر الوسيط اليهودي

هذا إلى نهايته من خلال عصر الأنوار الأوربي، ومع إعلان حقوق الإنسان مع الثورة الفرنسية، وهو ما مكن اليهودية الأوربية من تمثل الحداثة (٥). غير أن بارادايم التمثل هذا وصل أيضاً إلى نهاية مفاجئة من خلال المذابح المتعددة، وفي النهاية من خلال الهولوكوست. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس دولة إسرائيل في عام ١٩٤٧ ثمة ما يمكن تسميته بارادايم ما بعد الحداثة.

هنالك وجهة نظر ثانية وتحدٍّ آخر: لماذا يعيش الناس حتى في يومنا هذا في الدين الواحد ضمن بارادايمات متعددة، وهي متأثرة بشروط أساسية لا تزال قائمة وخاضعة لآليات اجتماعية محددة؟ كمثال على ذلك يوجد في المسيحية وفي هذه الأيام من الكاثوليك من لا يزالون يعيشون روحياً وعقلياً في القرن الثالث عشر (وفي الوقت ذاته مع توما الإكويني وبابوات العصر الوسيط ونظام الكنيسة المطلق). كما يوجد ممثلون للأرثوذكسية الشرقية لا يزالون باقين روحياً وعقلياً في القرنين الرابع والخامس (في الوقت ذاته مع آباء الكنيسة الشرقية). أما بالنسبة إلى بعض البروتستانت فإن المرجع الثقة من قبل ومن بعد إنما هو الوضع ما قبل الكوبرنيكي للقرن السادس عشر (مع المصلحين ما قبل كوبرنيكوس، وما قبل دارون).

يرى بعض اليهود المتزمتون مثلهم الأعلى في يهودية

العصر الوسيط ويرفضون دولة إسرائيل الحديثة. وعلى النقيض من ذلك ينظر كثير من الصهاينة إلى دولة إسرائيل بوصفها محض علمانية حديثة ويطمحون في الوقت ذاته إلى دولة ضمن حدود دولة داوود وسليمان. على أن بعض المسلمين يحلمون بطريقة مشابهة بالدولة العربية ويتمنون توحيد الشعوب العربية في أمة عربية واحدة، هم (دعاة القومية العربية).

كثيرون لا يجدون في العروبة ما هو موحد لهذه الشعوب وإنما في الإسلام. لذلك يمنحون الأسبقية للرابطة الإسلامية. وقد يكون هذا الإصرار وهذه المثابرة وهذا التنافس فيما بين هذه البارادايمات الدينية القديمة في عالم الحاضر واحداً من الأسباب الأساسية للصراعات ضمن الأديان ذاتها أو فيما بين الأديان، ولا يمنع من أن تكون هذه المسائل سبباً رئيسياً للاتجاهات المتعددة، وللحزبيات، وللتوترات، وللخلافات وحتى للحروب.

لهذه الأسباب أشرح في كتابي عن الإسلام البارادايمات الخاصة في الإسلام بما يكفي من الوضوح (انظر الترسيمة فيه):

١- باراديم السلطة الإسلامية الأولى في مكة والمدينة في عصر النبي محمد والخلفاء الراشدين الأربعة: الوحي وجمع القرآن.

٢- باراديم الإمبراطورية العربية الأموية في دمشق (٦٦٧-٧٥٠): إقامة نظام ملكي وراثي (مع معارضة شيعية) وتأسيس الشريعة الإسلامية.

٣- باراديم الديانة العالمية الإسلامية الكلاسيكية للحكم العباسي في بغداد بوصفها مركزاً وعاصمة (٧٥٠-١٢٢٨ هجوم المغول) علم الكلام العقلي، مدارس الفقه والشريعة.

٤- باراديم العلماء والصوفية بعد هجوم المغول في عصر التوسع وضم أقاليم متعددة، ولاحقاً الإمبراطوريات الكبرى الثلاث (التركية العثمانية والفارسية الصفوية والهندية المغولية)، حركات شعبية إسلامية، الأخويات الصوفية.

٥- باراديم التحديث الإسلامي، تباشيره الأولى ظهرت في الهند، ثم في مصر، وبعد ذلك الإمبراطورية العثمانية: صراعات ومماحكات بين الإصلاحيين والتقليديين.

٦- البارادايم المسكوني لما بعد الحداثة: الإسلاموية أو حقوق الإنسان، حقوق المرأة وحقوق الأقليات.

في وجهة نظر ثالثة وتحد آخر يمكن أن نستخلص الآتي: سواء أكان الأمر يتعلق باليهودية أم بالمسيحية أم بالإسلام فإن السؤال المركزي الآتي يفرض نفسه: كيف تتجلى علاقة هذا الدين مع عصره الوسيط (على أقل تقدير ما يرتبط بالمسيحية والإسلام؛ حيث إنهما تنظران إلى هذا العصر بوصفه «الزمن العظيم»). وكيف تتبدى علاقته مع الحداثة؟ حيث يجد المرء نفسه في هذه الديانات كلها ملزماً بالموقف الدفاعي. لا شك أن المسيحية عاشت بعد الإصلاح تبدلاً كبيراً في البارادايم وهو البارادايم الذي اضطر عصر الأنوار أن يحققه. أما اليهودية فقد أنجزت فى البداية عصر الأنوار الخاص بها، وعاشت في إثر ذلك وعلى أقل تقدير في يهودية مصلحة إصلاحاً دينياً. ولا نبالغ إذا قلنا أن الإسلام لم يعرف إصلاحاً دينياً، ومن هنا كان لديه مع الحداثة حتى يومنا هذه مشكلات خاصة وحقيقية.

نتائج من أجل الحاضر والمستقبل

من المتوقع أن أي يأيفرد عاش التجربة التي يستطيع أن يستخلص منها: كثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، الذين يؤيدون بارادايم الحداثة يفهم بعضهم بعضاً أكثر مما يفهمون شركاءهم في العقيدة التي تخصهم، ممن يعيشون

في عوالم بارادايمات أخرى. بالمقابل يستطيع الكاثوليك المؤمنون بقيم العصر الوسيط أن يتحدوا، على سبيل المثال في مسائل الأخلاق الجنسية، مع مسلمي العصر الوسيط، ومع اليهود المتعلقين بقيم العصر ذاته (مؤتمر السكان في القاهرة الذي عقدته الأمم المتحدة في عام ١٩٩٤).

كل من يريد أن يعيش في مصالحة وفي سلام، لا مفر له من إجراء تحليل نقدي وذاتي للبارادايم المهيمن. وهنا يمكن لنا فقط أن نجيب عن أسئلة مثل هذه: أين توجد الثوابت والمتغيرات في الديانة المسيحية (بطبيعة الحال) وفي غيرها من الديانات؟ أين الاستمرارية وأين اللااستمرارية؟ أين التطابق وأين الاختلاف؟

وهذه هي وجهة النظر الرابعة والتحدي الآخر: ما يجب المحافظة عليه بالدرجة الأولى هو جوهر الدين، الأساس، النواة؛ أي الثوابت المعطاة من الأصل. ليس من المحتوم أن نحافظ على كل شيء، ولا سيما على ذلك الذي هو في الأصل غير جوهري، أو ما هو متعلق بالقشور وليس بالنواة، أو ما هو متعلق بهيكل البناء وليس في الأساس. ما يمكن التخلي عنه (أو بالمقابل ما يمكن تطويره)، عندما يتبدى بوصفه ضرورة، إنما هو ما يقبل التغير بصورة مختلفة.

وهكذا يساعد تحليل البارادايمات مدفوعاً بكل هذا الخلاف الديني، ولا سيما في عصر العولمة على ابتكار توجه عولمي. هذا معناه أننا نجد أنفسنا دونما شك في مرحلة مفصلية بالنسبة إلى التشكيل الجديد للعلاقات العالمية، كما بالنسبة إلى علاقة الغرب بالإسلام، وأخيراً بالنسبة إلى العلاقات بين الديانات الإبراهيمية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلام. أما الخيارات فقط أصبحت واضحة لا لبس فيها: إما التنافس فيما بين الأديان، وصدام الحضارات، والحروب بين الأمم؛ وإما حوار الحضارات والسلام بين الأديان بوصفه شرطاً من أجل السلام بين الأمم.

ألا ينبغي علينا بدافع رد الخطر المميت الذي تواجهه البشرية بكاملها بدلاً من أن تشيِّد سدوداً جديدة للكره، وللانتقام والعداوة، أليس من الأفضل أن تزيل جدران الأحكام المسبقة حجراً بعد حجر، وبذلك تبني جسور الحوار، الجسور التي تعود أيضاً إلى الإسلام؟

فيما يخص تشييد الجسور هذا فإن الأهمية الحاسمة هنا، وهذه هي وجهة النظر الخامسة والتحدي الآخر: بقدر ما تختلف هذه الديانات فيما بينها، وبقدر ما تتباعد البارادايمات المختلفة، التي تتبدل على مدى مئات وآلاف

السنين: لا بد أن توجد على المستوى الأخلاقي ثوابت تمكن من تشييد مثل هذه الجسور.

الإسهام الإسلامي في حوار الحضارات

في عام ١٩٩٨، تقريباً في اليوم الذي حصلت فيه أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، قبل ثلاث سنوات أعلنت الأمم المتحدة في دورتها الكاملة في قرارها «عزمها التام على تشجيع وتسهيل الحوار بين الحضارات» وقررت «إعلان العام ٢٠٠١ عاماً للحوار بين الحضارات» ضد كل دعوة «لصدام الحضارات» (Clash of civitization).

بصورة غير متوقعة جاء اقتراح هذا القرار من الجانب الإسلامي، وبخاصة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومن رئيس جمهوريتها السيد محمد خاتمي (وقد انتخب في بلده من قبل أكثرية ساحقة، وتعرض إلى معارضة متنامية من قبل المحافظين، مما أدى إلى تعطيل مشروعه)، وهو الذي أعلن في خطبته في الدورة الكاملة في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨: «أنا أتمنى باسم الجمهورية الإسلامية الإيرانية أن أقترح في خطوة أولى أن تحدد الأمم المتحدة عام ٢٠٠١ بوصفه عام الحوار بين الحضارات، مع الأمل الجاد، أنه من خلال مثل هذا الحوار يمكن البدء بتحقيق عدالة وحرية على مستوى

العالم. إن ما يحسب من الإنجازات الثمينة في هذا القرن، أن الحوار ورفض العنف والإعلاء من شأن الفهم في حقول الثقافة، والاقتصاد والسياسة، وترسيخ أسس الحرية والعدالة وحقوق الإنسان، كل هذه القيم أعيد لها اعتبارها بوصفها ضرورية وذات أهمية قصوى. مما لا شك فيه أن تحقق وانتشار أشكال السلوك المتحضرة، سواء أكان ذلك على المستوى الوطني أم العالمي، يتعلقان بالحوار بين المجتمعات والحضارات، التي تمثل وجهات نظر وميولاً وأنماط عمل متغايرة. عندما توجه الإنسانية وهي على عتبة قرن جديد، وألفية جديدة، كل مجهوداتها إلى مأسسة الحوار، وعندما تستبدل الخطاب والفهم المتبادل بالعداوة والمواجهة، عند ذلك تكون قادرة على أن تترك للأجيال القادمة إرثاً لا يقدر بثمن.

تؤكد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، والحرب في أفغانستان والوضع المتفاقم في الشرق الأوسط، بطريقة مأساوية الضرورة الهائلة والملحة لمبادرة من مثل «السنة العالمية لحوار الحضارات». في الثامن والتاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر عقدت الأمم المتحدة جلستها الكاملة من جديد لكي تناقش حوار الحضارات - الفعاليات الجارية للسنة، تقرير مجموعة الخبراء وما تبقى من جدول الأعمال.

تحت رئاسة المساعد السابق للأمين العام للأمم المتحدة يقدم عدد من اللجنة التي شكلها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان، وهم «مجموعة من الشخصيات ذات الأهمية البالغة»، ينتمي إليها من الجانب الإسلامي الدكتور كمال أبو المجد (مصر)، والأمير طلال بن الحسين (الأردن)، والدكتور جواد ظريف (إيران)، إلى الأمين العام للأمم المتحدة نسخة مطبوعة للنسخة الأصلية الأمريكية لتقريرهم «معارضة التقسيم، الحوار بين الحضارات جسور إلى المستقبل، إعلان من أجل الحوار بين الحضارات». يهدف هذا الإعلان، مثلما يتحدث في مجال الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، إلى الوصول إلى بارادايم جديد للعلاقات العالمية على أساس أخلاق شاملة للعالم. مع الأسف لم يستقبل في الولايات المتحدة الأمريكية شعار السنة العالمية بل لم يتم إعلانه - على النقيض من ألمانية - لا في وسائل الإعلام ولا من قبل الرأي العام ولا حتى من السياسيين، كما كان من المفروض أن يجري التعامل معه بِرَاهنية عالية وبصدى سياسي كبير.

في الاجتماع الدوري للأمم المتحدة بعد يومين من المناقشات أعرب المتحدثون الذين ينتمون إلى دول متعددة، من بينها كثير من الدول الإسلامية عن استنكارهم ورفضهم

للصدام، وأيدوا مبدأ الحوار. في النهاية أقرت الجمعية في التاسع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر مشروعاً (كان قد تم اقتراحه من الجانب الإسلامي) يتحدث عن (أجندة عالمية لحوار الحضارات). في هذا القرار يجري التأكيد على القرارات السابقة، كما يشدد على الأهمية العظمى لحوار الحضارات بالنسبة إلى عالم اليوم. هنالك تسع مواد تصف بصورة مفصلة الأهداف والمبادئ والمشتركين في هذا الحوار: المادة الأولى تصف منهجياً الحوار بين الحضارات بوصفه سيرورة، مؤسسة على «المطالبة الجماعية للتعلم، لكشف الأحكام المسبقة، للاستقصاء والبحث ولإطلاق معنى مشترك وقيم أساسية»، والمادة الثانية تطالب عملياً «بتطوير فهم أفضل على قاعدة معايير أخلاقية مشتركة وقيم إنسانية عالمية».

بهذا القرار تعبر الجمعية العامة بدورتها المكتملة، وهذا ما استفاضت في شرحه مجموعة الخبراء في إعلانها، بأنه لا يمكن أن يوجد على سطح هذا الكوكب حياة مشتركة فعلية أو علاقات اجتماعية حقيقية، إلا عندما «يعيش الناس معاً، يمثلون نظاماً أخلاقياً مشتركاً، ويحرصون على إيجاد حس مواطنة قابل للتطبيق، ويطمحون بعضهم مع بعض إلى رخاء عام». ما المقصود بذلك؟ على كل حال لا يقصد به،

مثلما يتخوف بعض المسلمين، تأسيس إمبريالية ثقافية غربية، كما أن الهدف ليس إقامة دين عالمي وحيد أو حضارة قائمة على توحيد العالم، كلاً جنباً إلى جنب «أساليب حياة متعددة ومذاهب مختلفة» وهذا بطبيعة الحال غير ممكن إلا في حال التحرر من الصراعات، ما دام التنوع والاختلاف لا يؤذي الحقوق الأساسية وحريات الآخرين.

لقد تمكن المؤلفون إلى حد كبير من أن يستخلصوا على خط برلمان الأديان العالمية في شيكاغو **١٩٩٣** القاعدة الذهبية المتجذرة في كل التقاليد الدينية والإنسانية بوصفها القيمة الأخلاقية العظيمة الأولى المشتركة. وهى تتطلب «الإدراك، الاعتراف، القبول والتقدير العالي للآخرين بوصفه جزءاً من فهمنا الذاتي لأنفسنا»، ويمكن أن تساعدنا في أن «نتعلم كيف نكون إنسانيين».

الحس الإنساني، والفهم المتبادل والثقة؛ هذه هي المواقف الأساسية التي تصلح من أجل ممارسة الحياة في روح القاعدة الذهبية: «دونما حس إنساني ودونما ثقة لا توجد قاعدة أساسية للبحث عن القيم بوصفها جهداً روحياً مشتركاً لمشاركين ذوي رؤى متماثلة في الحوار».

في النهاية تستدعى إلى الذاكرة ضمن مبدأ المصالحة بوصفه جواباً عن دائرة الشيطان من الكره والعنف - منطلق

تؤيده أحداث ١١ أيلول/سبتمبر٢٠٠١ وتبعاته بطريقة دراماتيكية - تلك التوجهات الصائبة دائماً، والتي تضع إلى جانب القاعدة الذهبية ومبدأ الحس الإنساني نواة النظام الأخلاقي العالمي: التوجه نحو نزع العنف، والعدالة، والطلاق والمشاركة بين الرجل والمرأة.

كيف يمكن الآن لهذه القيم وهذه المعايير أن تؤسس انطلاقاً من التقاليد الإسلامية، وكيف يمكن أن تؤيد وتُمنح القوة؟

المهندس أسفهار علي، وهو مثقف إسلامي هندي له دور قيادي، بذل مجهوداً كبيراً قارن بنتيجته إعلان الأخلاق العالمية الصادر عن برلمان الأديان العالمية لعام ١٩٩٣ مع رسالة القرآن. على أن استخلاصاته تفضي إلى «إعلان الأخلاق العالمية يتطابق تماماً مع روح الإسلام».

وأنا أطرح هنا بإيجاز، مع أخذ معرفتي بهذا العمل بعين الاعتبار، كيف أن الالتزامات الأخلاقية المبدئية الموجودة في جميع التقاليد الفلسفية والدينية الكبرى، مؤسسة في الكتاب المقدس للإسلام، القرآن. وأنا أستند إلى القضايا المركزية لإعلان الأخلاق العالمية لعام ١٩٩٣، مصدقاً من خلال «الدعوة الموجهة إلى مؤسساتنا وذات الدور القيادي» بمناسبة انعقاد برلمان الأديان العالمية لعام

١٩٩٩ في كابشتات/ في جنوب إفريقية، وأخيراً من خلال الإعلان «معارضة التقسيم، حوار بين الحضارات» ٢٠٠١.

١- حضارة اللاعنف واحترام الحياة:

«عليك أن تبدي احتراماً إزاء الحياة» - «لا تقتل»، لا تعذب، لا تؤذِ، لا تجرح!

احترام الحياة، جميع أشكال الحياة فعلياً، إنه متجذر عمقياً في الأخلاق الإسلامية. يقول القرآن بأن قتل نفس بريئة يعادل قتل الناس جميعاً. نستطيع أن نستخلص مما هو متوارث كيف كان النبي حريصاً على الحيوانات وعلى الطبيعة.

٢- حضارة التضامن ونظام اقتصادي عادل:

«ليكن سلوكك قائماً على العدل والاستقامة» - «لا تسرق»، لا تستغل، لا ترشُ ولا تفسد!

بالنسبة إلى الأخلاق في القرآن تبدو العدالة مسألة مركزية إلى درجة أن الإنسان العادل وحده يمكن أن يكون مؤمناً حقاً: «يا أيها الذين آمنوا كونوا شهداء على الناس قوامين بالقسط»[1] وهنالك آية أخرى تقول: «يا أيها الذين

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى»(١).

إن نظاماً اجتماعياً غير عادل لا يمكن أن يكون نظاماً إسلامياً. فالقرآن يطالب، بأن الزيادات في الأموال التي تتجاوز الحاجات الفعلية، يجب أن توزع على المحتاجين والفقراء. على هذه الخلفية يكون العون الاجتماعي الإلزامي أو ما يدعى بالزكاة واحداً من أركان الإسلام الخمسة.

٣- ثقافة التسامح وثقافة الحياة في الاستقامة:

«تكلم وتصرف بصدق» - «لا تكذب»، لا تغش، لا تزور، لا تتلاعب!

تتأسس الأخلاق في القرآن جوهرياً على أمانه الصدق: والحق هو أحد أسماء الله بوصفه قيمة مركزية في الإسلام مثلها مثل العدالة. إن نظاماً اجتماعياً دونما مسألة الصدق بوصفه بدهية أساسية لا يمكن تحقيقه.

٤- ثقافة المساواة وثقافة المشاركة بين الرجل والمرأة:

«احترموا وأحبوا بعضكم بعضاً» - «لا تسيئوا استخدام

---

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٥/ ٨].

الجنس»، لا تخدع، لا تحتقر، لا تغمط من شأن أحد!

يعطي القرآن في المبدأ للنساء وللرجال الوضعية المتماثلة: «يحق للمرأة (في مجال التعامل مع الرجال) أن تمتلك الحقوق ذاتها، وفي الوقت ذاته هي ملزمة (من جانبها تجاه الرجال) أن (تتصرف) بطريقة تقوم على الحق».

إن المبدأ الإنساني، المبدأ الأساس للأخلاق العالمية، الكرامة الإنسانية لكل إنسان، موجود في الأقوال الأساسية للقرآن: الله ميَّز الإنسان عن سائر المخلوقات ووضعه خليفته على الأرض. أما القاعدة الذهبية عن العلاقة المتبادلة فهي متحققة في سنة الرسول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

مع المناقشة ومع قرار الأمم المتحدة في دورتها الكاملة وجد حوار الحضارات، ومعه فكرة أخلاق عالمية، مدخلاً إلى ترتيبات أساسية للأمم المتحدة، بالدرجة الأولى بتأثير الأمين العام للأمم المتحدة وحامل جائزة نوبل للسلام كوفي عنان ومبادرته. وقد أيد الأمين العام هذا شخصياً في محاضرته الهامة عن الأخلاق العالمية، التي ألقيت بناء على دعوة من مؤسسة الأخلاق العالمية في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ في جامعة توبنغن تحت عنوان: هل توجد حتى الآن قيم عالمية؟

يبدو كوفي عنان على ثقة من أنه «توجد في عصرنا الذي نعيش فيه - أي عصر العولمة - حاجة ملحة إلى مثل هذه القيم العالمية أكثر من أي وقت مضى. حيث يجب على كل مجتمع أن يكون مرتبطاً من خلال قيم مشتركة، ذلك أن أعضاءه يعرفون، ماذا يمكن أن يتوقع بعضهم من بعض، وأنه من المقرر أن توجد من الجميع أسس معتنقة، تمكنهم من تحقيق حل خالٍ من العنف لخلافاتهم. وهذا يصح من أجل مسائل عامة محلية وكذلك من أجل مجموعات من الدول».

هذا يصلح بصورة خاصة بالنسبة إلى علاقة الغرب بالإسلام: ونحن لا يجوز لنا مع كل الشجب لأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ ضد الولايات المتحدة «أن نسمح، أن تحرض مثل هذه الأحداث على صراع الحضارات الذي يمكن أن يسقط فيه ملايين من الناس من لحم ودم في معركة بين تجريدين - الإسلام والغرب، كما لو أن القيم الإسلامية والقيم الغربية لا يمكن توحيدهما»، «أنتم في حقيقة الأمر لستم مثلما يطمئنكم قبل كل شيء الملايين من معتنقي الإسلام، الذين يعيشون في ألمانية وفي أي مكان من العالم. ذلك لأن كثيراً من هؤلاء المسلمين يجب أن يكونوا في صورة، أنهم سوف يصبحون موضوعاً للاتهامات وأشكال الغبن والتمييز، في حين سيكونون في أجزاء من العالم الإسلامي، التي ترتبط مع الغرب أو مع القيم الغربية

بعلاقات، معرضين للدخول في عداوات، ومن ثم استخدام العنف».

كوفي عنان يؤكد «بأن صلاحية القيم العالمية لا تتعلق بما إن كان قد تم الالتزام بها في كل مكان، أو إذا كانت تطبق أم لا. إن النظام الأخلاقي إنما هو دائماً تعبير عن مثال أو طموح ما، أو بكلمة أخرى معيار يمكن أن يقاس عليه سلوك أخلاقي خاطئ، وليس أبداً نوعاً من التعاليم، الذي ينبغي أن يرسخ، بأن مثل هذا السلوك الخاطئ لا يمكن أن يحصل».

ما يصلح بالنسبة إلى المسيحية يصلح بالنسبة إلى الإسلام وهو «أنه لا ينبغي أن يدان دين أو نظام أخلاقي بسبب خروج بعض معتنقيه عن جادة الصواب. مثال على ذلك عندما لا أريد أن يقيم اعتقادي تبعاً لسلوك فرسان الحروب الصليبية أو تبعاً لمحاكم التفتيش، عند ذلك علي أنا ذاتي أن أكون حذراً، عندما أقيم اعتقاد الآخرين تبعاً لتصرفات فئة قليلة من الإرهابيين الذين يقومون به باسم معتقدهم».

إنه إذن لمن الخطأ «أن ندين اعتقاداً بذاته أو نظاماً قيمياً معيناً بسبب تصرفات عدد قليل من معتنقيه أو أقوالهم». غير أنه أيضاً من الخطأ «أن نتنازل عن الفكرة، ونحن نعلم بأن قيماً بذاتها عالمية، فقط لأن عدداً قليلاً من الناس يبدو أنه

لا يقيم لها وزناً. أجل، حتى إنني أعني، بأن وجود مثل هذه الضلالات يلزمنا بأن نشدد على هذه القيم المشتركة بعد أن نحافظ عليها. يجب علينا أن نكون في وضع يتيح لنا أن نقول أن تصرفات بعينها وقناعات لا تتعارض فقط مع تصوراتنا الأخلاقية الخاصة، وإنما إضافة إلى ذلك ينبذها الناس جميعاً».

كوفي عنان على وعي تام بأن القيم والمعايير لا يمكن أن تطبق بصورة مجردة، وإنما فقط ودائماً بصورة عيانية، مع الأخذ بعين الاعتبار الموقف الفردي والثقافي، وهذا ما يتيح مجالاً محدداً لتفسيرات متعددة ولتحققات مختلفة: «إن تملك مثل هذه القيم المشتركة لا يحل بطبيعة الحال كل المشكلات، وهو لا يغيِّر شيئاً من أن المجتمعات المختلفة تملك مساحة واسعة ومعينة للتشكيل، من أجل أن تحل مشكلاتها بطريقة مختلفة».

إن الأمين العام يستخلص بدقة أفكاره هذه بالنظر إلى التوجهات الأربعة لإعلان الأخلاق العالمية لبرلمان الأديان العالمية:

- علينا أن نؤمن بصدق بعدم استخدام العنف وباحترام الحياة، ويمكن أن يكون موقف مختلف حول ما إذا كان من المشروع قتل الناس، الذين قتلوا الآخرين وأن نستخدم

العنف لكي ندافع عن الناس الأبرياء، الذين اعتدي عليهم بواسطة العنف.

- ينبغي علينا أن نقف بحزم وصدق دفاعاً عن التضامن مع شركائنا في الإنسانية، ومن أجل نظام اقتصادي عادل، وليس من الضروري أن نكون موحدين إزاء الهدف الذي نسعى إليه، وصولاً إلى السياسة التي يمكن أن يتحقق معها على أفضل وجه مثل هذا النظام الاقتصادي.

- ينبغي علينا جميعاً أن نشعر بأننا ملتزمون عميقاً بالتسامح والاستقامة، وألا نكون موحدين في الكيفية التي ينبغي أن نكون فيها متسامحين مقابل الدول والأنظمة، التي تبدو لنا غير متسامحة ومخادعة.

- ينبغي علينا أن نقف جميعاً بصدق من أجل المساواة في الحقوق ومن أجل المشاركة بين الرجل والمرأة دون أن نكون موحدين حول الحدود التي ينبغي أن يذهب إليها التوزيع الاجتماعي للأدوار بين الرجال والنساء، أو حول ما إذا كان من واجب المجتمع أن يحقق قداسة الزواج.

هكذا مضى بعيداً الأمين العام السابق، الذي قاد على أفضل وجه النظام العالمي في عام **٢٠٠٣** خلال تاريخه الأصعب ربما حتى وقتنا هذا.

الخاتمة

إنني على ثقة تامة أنني طورت في مجلداتي الثلاثة - «اليهودية» (١٩٩١)، «المسيحية» (١٩٩٤)، «الإسلام» (٢٠٠٤) - بالنسبة إلى كل من الأديان الإبراهيمية الثلاثة، والتي توجه إليها عملي العلمي الأساسي في الخمس والعشرين سنة الأخيرة، بعض ما هو حقيقة غير مريح ولكن في الوقت ذاته بعض ما يرتبط بآفاق المستقبل، التي يمكن أن تبدو في بعض الأحيان طوباوية. غير أن عملي بكامله محمول من قبل أمل راسخ لا يتزحزح وثلاثي الرؤوس:

بأن كل دين من هذه الأديان الثلاثة، التي جاء بها الأنبياء يملك على أساس غناه الروحي والأخلاقي إمكانية ذات قوة فاعلة باتجاه المستقبل.

وأن الأديان الثلاثة تستطيع أن تصل إلى تحقيق مشاركة عظيمة في مجال التفاهم والعمل المشترك.

وأن الأديان العالمية الثلاثة تستطيع أن تنجز بالمشاركة إسهاماً لا يمكن الاستغناء عنه وصولاً إلى عالم تتحقق فيه العدالة وينعم بالسلم.

ولعلي هنا أنهي هذا الإسهام بالجمل المنهجية، التي بدأت بها وأنهيت بها دراستي للأديان الثلاثة. إلا أنني أتمنى أن أكملها، بعد أن أنجزت «البحث الأساسي» المطلوب بالنسبة إلى الديانات الإبراهيمية، وحققتها مدققاً بحيث تؤيد حقيقة من قبل اليهود والمسيحيين والمسلمين:

ليس ثمة سلام بين الأمم

دونما سلام بين الأديان!

ليس ثمة سلام بين الأديان

دونما حوار بين الأديان!

ليس ثمة حوار بين الأديان

دونما معايير أخلاقية عالمية!

ليس ثمة إنقاذ لكوكبنا

دونما أخلاق معولمة، أخلاق العالم

محمولة بصورة مشتركة على أكتاف

الناس الدينيين واللادينيين!

أن يتصرف بإنسانية وليس بلا إنسانية.

وهكذا توجد في جميع التقاليد الدينية والفلسفية،

والتقاليد المرتبطة بالموقف الفلسفي من العالم، بضعة أوامر أخلاقية بسيطة موقظة للحس الإنساني، والتي بقيت حتى الآن ذات أهمية عظمى. وقد نُقلت من قبل برلمان الأديان العالمية في شيكاغو سنة ١٩٩٣ في «إعلان للأخلاق العالمية» إلى عصرنا الحاضر، كما تمت صياغتها في عام ١٩٩٧ من قبل مجلس التفاعل المشترك لرؤساء الدول والحكومات المؤسسة في اقتراح «إعلان عام لمسؤوليات الإنسان».

- «لا اغتيال؛ لكن أيضاً لا تعذيب، لا إيلام أو جرح» أو إيجابياً: «ليكن لديك احترام إزاء الحياة» من الالتزامات تجاه ثقافة اللاعنف واحترام الحياة.

- «لا تسرق؛ ولكن أيضاً لا تستغل، لا ترشُ، لا تفسد» أو إيجابياً: «تصرف بصدق وباستقامة» الالتزام بثقافة التضامن وبنظام اقتصادي عادل.

- «لا تكذب؛ لكن أيضاً لا تخدع، لا تزور، لا تتلاعب» أو إيجابياً: «تحدث وتصرف بصدق» الالتزام بثقافة التسامح والحياة في صدق.

- وفي النهاية: «لا تسِئ استخدام الجنس؛ ولكن أيضاً لا تسِئ استخدام الشريك إطلاقاً، لا تحتقره ولا تحط من قدره» أو إيجابياً: «احترموا وأحبوا بعضكم بعضاً» الالتزام بثقافة المساواة والمشاركة بين الرجل والمرأة.

نحن بحاجة من جديد إلى رجالات دولة وإلى عقول اقتصادية وقادة نقابات، وإلى رجال إعلام وصانعي ثقافة، من الرجال والنساء، من الذين يتمسكون بمتطلبات هذا الحس الإنساني، والذين هم مثل عليا (إن شباباً دونما مثل عليا سيكون مصيرهم الضياع والفساد). هنالك مبدآن أخلاقيان أساسيان يشكلان أساس هذه الأوامر الأخلاقية الأربعة، التي نجدها لدى باتنجالي، مؤسس اليوغا، كما نجدها في التعاليم البوذية، وفي التوراة العبرية، وفي العهد الجديد وفي القرآن.

- هنا توجد قبل كل شيء تلك القاعدة القائمة على التبادل، أو القاعدة الذهبية والمصوغة من قِبل كونفوشيوس لعدة مئات من السنوات قبل المسيح، المعروفة في جميع التقاليد الفلسفية والدينية الكبرى، وإن كانت ليست بدهية بصورة مطلقة: «ما لا ترغب فيه أنت، لا تطلبه للآخرين». وبقدر ما هي القاعدة مبدئية، تكون عوناً لدى اتخاذ القرارات في بعض المواقف الصعبة.

- القاعدة الذهبية يجري تدعيمها من خلال القاعدة الإنسانوية التي ليس فيها شيء من الإطناب: «كل إنسان سواء أكان مسناً أم في عمر الشباب، رجلاً أم امرأة، معاقاً أم غير معاق، مسيحياً أم يهودياً أم مسلماً، ينبغي أن يعامل بإنسانية وليس بلا إنسانية»، ما هو إنسانوي لا يمكن تقسيمه.

من ذلك كله يصبح جلياً، أننا لا نعني بالنظام الأخلاقي للإنسانية أو بالنظام الأخلاقي العالمي منظومة أخلاقية تعود في أصولها إلى أرسطو أو توما الإكويني أو كانت (الأنظمة الأخلاقية)، وإنما نعني بذلك بعضاً من قيم أخلاقية مبدئية هي في الأساس بدهية، بكلام آخر: معايير ومواقف ينبغي لها أن تشكل القناعة الأخلاقية الشخصية للشخص الإنساني وللمجتمع (نظام أخلاقي).

هذا النظام الأخلاقي هو دائماً منافٍ للواقع ولا يمكن أن يعاش في أي مكان أو من قبل أي إنسان بصورة كاملة. ومتطلبات الإنسانية هذه لا يمكن أن تحقق هكذا بصورة مباشرة، ويجب أن يتم تذكرها من جديد من أجل إمكانية تحقيقها. وأنا أرجو من كل قلبي بأن يلتزم الجميع بمثل هذه الأخلاق الإنسانية في المجالات التي يعملون فيها. وهنا يمكن أن نتذكر ما قاله كوفي عنان في خطبته حول الأخلاق العالمية في توبنغن عام **٢٠٠٣**: «عندما يكون من الخطأ أن ندين اعتقاداً بذاته أو منظومة قيم معينة بسبب أفعال بعض معتنقي هذه المعتقدات أو أقوالهم، فإنه سيكون أيضاً من الخطأ أن نتخلى عن الفكرة التي تقول بوجود قيم محددة لها صلاحية كونية، فقط لأنه يبدو أن بعضاً من الناس لا يحترمون مثل هذه القيم».

وفي النهاية أختم بهذه الكلمات التي ختم بها أيضاً الأمين العام للأمم المتحدة خطابه: «ألا تزال توجد قيم عالمية؟ نعم، إنها موجودة، ولكن لا يجوز أن ننظر إليها على أنها بدهية.

يجب أن يُفكر فيها بعناية فائقة،

كما يجب أن يدافع عنها،

ويجب أن يتم الحرص على تقويتها،

كما يجب أن نجد في أنفسنا الإرادة، لكي نعيش تبعاً لهذه القيم، التي نبشر بها، في حياتنا الخاصة، في حياتنا المشتركة المحلية والوطنية وفي العالم».

الفهرس العام

أ

آباء الكنيسة: ٨٩، ١٤٥
آباء الكنيسة الشرقية: ١٤٥
الآشوريون: ١٤٤
آن ماري شميل: ١٠٠
آية الله الخميني: ٨٢، ١١٤
ابن سينا: ٩٢
ابن العماد: ٣٤
أبو الفاراي بارهيبرايوس: ٨٨
الأتراك: ٩٤
الأحبار: ١٤٤
أحكام الإمامة: ٤٣
الأحمدية: ٨٢
الأخـــلاق: ١٤، ١٥، ٣٥، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٦٠، ٦٤، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٤، ١٤٩، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨
إدوارد سعيد: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤
أدوناي: ١٣٣، ١٣٦
الأرثوذكسية الشرقية: ١٤١، ١٤٥
أرمينية: ٨٨
الإرهـــاب: ٥٨، ٥٩، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٨، ٨١، ١٣٢، ١٦١
أرييل شارون: ٨١
الأزمة البيئية: ٨٠
إسبانية: ٦٠، ٩٠، ٩١، ١١٤
الاستبداد: ٧٠
الاستشراق: ٩٩، ١٠١، ١٠٢
الاستعمار الروماني: ٢٩، ٣٦، ٣٧
الاستغراب العربي: ١٠٤
إســرائـيـل: ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٨٠، ١٠٢، ١١٢، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٣

أسفهار علي: ١٥٦
الإسلام الحضاري: ٣٠، ٣١، ٣٥، ٥٠
إسماعيل بن إبراهيم: ٨٨
الأصولية الهندوسية: ٧٥
اعتداء ١١ أيلول ٢٠٠١: ٧٧، ١٠٣، ١٢٨، ١٥١، ١٥٢، ١٦٠
إعلان الأخلاق العالمية: ١٥٣، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٦
أغابيوس: ٨٧
إغناز غولدتسيهر: ١٠٠
إفريقية: ٩٣، ١١٤، ١٥٧
أفغانستان: ٨٣، ١٥٢
الأقباط: ٣٠، ٨٧
الأقليات الدينية: ١١٤
الإكليروس القبطي: ٥٣
الالتزام الديني: ٤٣
الإلحاد: ١٥
ألكسندر روس: ٩٥
ألمانية: ٨٠، ٨٤، ٩٦، ٩٧، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١٥٣، ١٦٠
ألويس شبرنغر: ٩٩
الإمبراطورية الرومانية: ٥٥، ١٤٤
الإمبراطورية العربية الأموية: ١٤٧
الإمبريالية: ٧٦، ١٠٢، ١١٥، ١٢٥، ١٥٥
الأمم المتحدة: ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٩
الأمن: ٢٠، ٢١، ٢٩، ٣٩، ٤٤، ٥٨، ٧٩
الأمير طلال بن الحسين: ١٥٣
الانتداب: ٤٤
الأندلس: ٨٧
الإنسان الأبيض: ٥٨، ٨٦
إنسانية الإنسان: ٥٠، ٦٦
الأنظمة التوتاليتارية: ١٤٢
أهل الذمة: ٣٩، ٤٤
أهل نجران: ٤٤
أوترشت أدريان ريلاند: ٩٥
أوربة: ٧٠، ٨٠، ٩٢، ٩٨، ١٢٦، ١٤٢
إيدل مان رامون للول: ٩٣
إيديولوجية: ٧٦، ١٢٦
إيطالية: ٩١
إينيا سيلفيو بيكولوميني: ٩٣

ب

البابا بيوس الثاني: ٩٣، ١١٢
البابا بيوس الثاني عشر: ١١٢
البابليون: ١٤٤
البارادايم: ١٠٢، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠
بارادايم الإنجيلية: ١٤١

باراديم بطليموس: ١٤٢
باراديم التقدم: ١٤١
باراديم الثيوقراطية: ١٤٣
باراديم الدولة: ١٤٣، ١٤٤
باراديم الرابي: ١٤٣
باراديم القبائل: ١٤٣، ١٤٤
باراديم القيامة: ١٤١
باراديم الكاثوليكية: ١٤١
باراديم كوبرنيكوس: ١٤٣، ١٤٥
باراديم ما بعد الحداثة: ١٤٥
الباراديم المسكوني لما بعد الحداثة: ١٤٧
باراديم المسكونية: ١٤١، ١٤٤
باراديم الهللنية: ١٤١
البحرين: ٤٤
البرتغال: ٦٠
برلمان الأديان العالمية: ١٥٥، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٦
البعثات التبشيرية: ٨٣
بلاد الشام: ٢٩
البلقان: ١١٤
بن لادن: ٨٢
بنيامين فرانكلين: ٥٩
البهائية: ٨٢
البوذية: ٧٥، ١٤٠، ١٦٧
البيت الأبيض: ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٩

ت

التاريخ الإجرامي: ١٢٢
التجويد القرآني: ٣٥
التحديث الإسلامي: ١٢٥، ١٤٧
التراث الإغريقي: ١٣٣
التسامح: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٨٢، ٩٦، ٩٩، ١١٥، ١١٦، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦
تسليمة نسرين: ١٢٣
التصوف: ١٠٠، ١١١، ١١٧
التعايش: ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٤
التعصب: ٥٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ١١٤، ١١٥، ١١٦
التقنية: ١٢٥
التلمود: ٥٦، ١٤٤
التنوير: ٩٦، ١٤٢
التهديد النووي: ٨٠
تور اندري: ٩٩
التوراة العبرية: ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٦٧
توما الإكويني: ٩٢، ١٤٥، ١٦٨
توماس كارليل: ٩٨
توماس كوهن: ١٣٩
تيودور نولدكه: ٩٩

ث

ثقافة التسامح: ١٥٨، ١٦٦
ثقيف: ٢٧
الثورة الفرنسية: ١٤٥

ج

ج. ف. غيروك: ١٠٠
جاك فاردنبورغ: ١٠١
الجزائر: ٨٤، ١١١
الجزية: ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٤
جنوب إفريقية: ١٥٧
الجهاد: ٢٥، ٢٦، ٨٥
الجهاد القتالي: ٢٥
جواد ظريف: ١٥٣
جوان دي توركيمادا: ٩١
جوان دي سيفوفيا: ٩٣
جورج سيل: ٩٥
جوزيف فان إس: ١٠٠
جيوفري بارينذر: ١٠٠

ح

حافظ الشيرازي: ٩٨
حرب الخليج: ١٠٤
حرب الخليج الثانية: ٧٧
الحرب ضد الإرهاب: ٧٨
الحرب العالمية الثالثة: ٨٦
الحرب العالمية الثانية: ١٠٢، ١٤٥
حرب العوالم: ١٠٣
الحرب المقدسة: ٨٢، ٨٥
الحرية: ٧٠، ١١٥، ١٥٢
حضارة الإسكندرية: ١١٠
الحضارة البيزنطية: ٥٠، ٥١، ٥٢
الحضارة الصينية: ١١٠
الحضارة العربية: ٣٤، ٩١، ٩٢، ١٠٢
حقوق الإنسان: ٥٠، ٥٢، ١١٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٢
الحكم العباسي: ١٤٧
حماس: ١١٠، ١١٧
الحملة الصليبية الأولى: ٩٠
حوار الأديان: ٣٨، ١٠٧، ١١٧، ١٦٥
الحياة البرزخية: ١٦

خ

الخطيئة: ١٢١
الخلافة العثمانية: ٥٤
الخلفاء الراشدون: ١٢٣، ١٤٦

د

دانييل بارنياوم: ١٠٢
الداوية: ٧٥

الدبلوماسية: ١٣
الدعوة المحمدية: ٨٨
الدول الصناعية: ٨١، ٨٦
الدول العربية: ٦٢
الدولة الإسلامية: ٤٣، ٤٥، ٥٤
دولة الشر: ٧٨، ٨٦
دولة يهودا: ١٤٤
الديانة العالمية الإسلامية: ١٤٧
ديكتاتورية النخب الحاكمة: ٨٥
ديماغوجية: ٨٤
الديمقراطية: ٥٨، ١١٤، ١١٥، ١٢٥
الدينونة: ١٧

ر

الرابطة الإسلامية: ٢٩، ١٤٦
الراديكالية: ١١٧
الرجعية: ٧٦، ٨٢، ٩٩
روبرت كبتون: ٩٠
روجر بيكون: ٩٢
روجيه غارودي: ١٠٩
رودي باريت: ١٠٠
الروس: ٨٠، ٩٥
ريجيس بلاشير: ٩٩
ريشارد بل: ١٠٠
ريغنالد بوز: ٩٩

ز

الزكاة: ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ١٠٦، ١٥٨

س

السامية: ٦٧، ١٢٤
السريان: ٨٧
سقوط القسطنطينية: ١٤١
سلطان الدين: ٥١، ٥٤
سلطان السياسة: ٥٤، ٥٥
السلطان صلاح الدين: ٩٢، ٩٦
سلمان رشدي: ١١٤، ١٢٣
سورية: ٨٧، ٨٨
السياسة البيزنطية: ٣٦، ٥١، ٥٢
السياسة الرومانية: ٣٦، ٥٥
السياسة الغربية: ٥٥
السياسة اليهودية: ٦٧
السيرة النبوية: ٢٨
السيطرة الفارسية: ١٤٤
السيناغوغن: ١٤٤

ش

الشرق الأقصى: ٧٥
الشرق الأوسط: ١٤، ٨٠، ١٠٨، ١١٤، ١٥٢
شركات الأدوية: ٥٥

الشركات التجارية العملاقة: ٥٥
الشريعة الإسلامية: ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٥٤، ٥٥، ١٤٧
الشيوعية: ٧٧، ٨٠، ٨١، ١١١

ص

صدام الحضارات: ١٠٣، ١٥٠، ١٥١، ١٥٤
الصراع العربي الإسرائيلي: ١٠٢
الصفوية: ١٤٧
صقلية: ٩١
صموئيل هنتنغتون: ٧٦
الصهيونية العالمية: ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٧، ٦٩، ٧٠
الصوفية: ١٤٧

ض

الضريبة: ٤٠، ٤١، ٤٤

ط

الطائفية: ٣٣، ٤٥
الطقوس: ١٣١، ١٣٢، ١٤٣
طوباوية: ١٦٤

ظ

الظلم: ٢١، ٢٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٤، ٦٤، ٦٦، ١٠٣

ع

عادل خوري: ١٠٠
العدل: ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٨، ٦٨، ١٥٧
العراق: ٨٣، ١١٥
العروبة: ١٤٦
عصر الأنوار: ٩٦، ١٣٣، ١٤٥، ١٤٨
العصر العباسي: ٣٣، ٨٨
عصر الكهنة: ١٤٤
عصر النبي محمد ﷺ: ١٤٦
العصر الوسيط اليهودي: ١٤٤
العصور الوسطى: ٨٢
العضد الإيجي: ٣٤
العقائد المسيحية: ٥٣، ٩٢
عقد الذمة: ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٥٤
العقلانية: ٨٢، ٨٤، ١٠٩، ١٤١
علم الكلام الإسلامي: ١٠٠
علماء الهيئة: ٣٤
العلمانية الأوربية: ٨٥
العمارة الإسلامية: ٣٥
عمر بن الخطاب: ٢٩، ٣٦، ٤١
عمر بن عبد العزيز: ٨٩
العنف: ٨١، ٨٢، ٨٥، ٩٥، ١٢١، ١٢٦، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣

العولمة: ٨٥، ١٥٠، ١٦٠، ١٦٥
العون الاجتماعي الإلزامي: ١٥٨
عيسى بن مريم: ٣٦، ٣٩

غ

الغزوات الصليبية: ٢٩
الغزوة: ٢٦، ٢٧، ٢٨
غوتهولد إفراييم لسنغ: ٩٦
غوستاف فلوغل: ١٠٠
غوستاف ويل: ٩٩

ف

الفاتيكان: ٦٧، ١٠٥، ١٢٦
فالتر بينز: ٩٦
الفتح الإسلامي: ٢٩، ٣٠
فرسان الصليب: ٩٧، ١٦١
فرنسة: ٦٨، ٨٠، ٨٤
فرنسيس الأزيزي: ٩١
فريدريك الثاني: ٩١
فريدريك ريكرت: ٩٨
الفقر: ٤٠، ٨٦، ١٥٨
فكتور سحاب: ٣٤، ٥٣
فلسطين: ٦٠، ٦٥، ٩٧، ١٠١، ١١٧، ١٥٣
فلهلم فون تريبوليس: ٩٢
فلهلم فون تيروس: ٩٢
فولتير: ٩٩

ق

قبيلة غطفان: ٢٨
قبيلة هوازن: ٢٧
القدس: ٢٩، ٣٦، ٥١، ٨٠، ٨٤، ٨٩، ٩٠، ١٣٥
القرآن: ١٣، ١٤، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٦٧، ٩٠، ٩٢، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٩، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧
القرن التاسع عشر: ٩٩، ١٠١
القرن الثالث عشر: ١٤٥
القرن الثاني عشر: ٨٧
القرن السادس عشر: ١٤٢، ١٤٥
القرن العاشر: ٨٧
القرن العشرون: ٧٥، ١٠١، ١٠٣، ١١٠
القوانين الوضعية: ٥٤
القومية: ١٠٢، ١٣٢، ١٤٦

ك

ك. سنوك هورغرونجي: ١٠٠
كارل جوزيف كوشل: ٩٧

الكتابيون: ٣١، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٤
الكرامة الإنسانية: ١٥٩
كلاوس شدي: ١٠٠
كمال أبو المجد: ١٥٣
الكنيسة الأرثوذكسية: ٨٩، ١٤٥
كنيسة القيامة: ٣٦
الكنيسة النسطورية: ٨٨
كوفي عنان: ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨
الكولونيالية: ١٠١، ١٢٥
الكونفوشيوسية: ٧٥

ل

اللاسامية: ١٠١، ١١٠، ١٢٤
اللاعنف: ١٥٧، ١٦٦
اللغة العربية: ١٥، ٣٤، ٩٢، ٩٣
لندون لاروش: ٦٧
لويس ماسينيون: ١٠٠
ليون كايتاني: ٩٩

م

ما بعد الحداثة: ١٢٥، ١٤١، ١٤٥، ١٤٧
ما بعد الكولونيالي: ١٠١
ما قبل داروين: ١٤٥
ما قبل كوبرنيكوس: ١٤٥
مارتن لوثر: ٩١
مارتيموتوس: ٨٨
مارتين باوشكي: ١٠٠
المثالية الدينية: ١٢١
المجمع الفاتيكاني الثاني: ١٠٥، ١٢٦
المجوس: ٤٤
المحافظون الجدد: ٨٦
محاكم التفتيش: ١٦١
محبوب بن قسطنطين: ٨٧
محمد أحمد رسول: ١٠٥
محور الشر: ٧٨، ٨٦
المدينة المنورة: ٥٤
مراد فيلفريد هوفمان: ١١١
المستشرقون الألمان: ١٠٢، ١٠٤
المستشرقون الإنكليز: ١٠٢، ١٠٤
المسلمون العلمانيون: ١٣٢
المسيحية الدينية: ٥٣، ٧٥، ١١٣، ١٢١، ١٢٥، ١٣١، ١٣٩
المسيحية السياسية: ٥٣، ١٢٠
المسيحيون العلمانيون: ١٢٨، ١٣١
المشرق العربي: ٨٤
المشنا: ١٤٤
مصر: ٢٩، ٣٠، ٥٣، ٨٨، ٩٢، ١١٧، ١٤٧، ١٥٣
معامل الأسلحة: ٥٥، ٥٦، ٥٧

معاوية: ٨٨
معايير أخلاقية عالمية: ١٦٥
المعايير المزدوجة: ٨٣
معركة بدر: ٢٦، ٢٧
المغولية: ١٤٧
مكسيم رودنسون: ٩٩
الملك داوود: ١٤٤
الملك سليمان: ١٤٤
الملك الكامل: ٩١
موقعة حنين: ٢٧
موقعة الخندق: ٢٦
موقعة خيبر: ٢٨
موقعة ذات الرقاع: ٢٧
مونتغمري واط: ٩٩
الميتافيزيقا: ١١٩

ن

النبي محمد ﷺ: ٨٧، ٩٠، ٩٥، ٩٨، ١٠٩، ١٤٦
النساطرة: ٨٧
النصارى: ٢٩
نصارى بني تغلب: ٤٢
النصرانية المتهودة: ٥٨، ٦٧
نظام الدولة: ٣٩، ١٤٢
نظام الكنيسة المطلق: ١٤٥
النفي البابلي: ١٤٤
نورمان دانييل: ٩٥، ١٠١
نيكولاس فون كويز: ٩١

هـ

الهالاخا: ١٣٣، ١٣٤، ١٤٤
هايكي رايزانين: ١٠٠
هجوم المغول: ١٤٧
الهراطقة: ٨٩
الهند: ٧٥، ١١٠، ١٢٤، ١٤٠، ١٤٧
الهندوسية: ٧٥، ١٤٠
الهولوكوست: ١٠٢، ١٣٢، ١٤٥
هيراكليوس: ٨٨

و

الوثنية: ١٠٩
الوحي: ٨٩، ٩٠، ١٣٦، ١٤٦
ورث سميث: ٩٩
وسائل الإعلام: ١٤، ٧٧، ٨١، ١٠٤، ١٢٦، ١٥٣
الوصاية: ٤٤
الوفاء: ٤٠، ٤٣
الولايات المتحدة: ٥٩، ٦٠، ٦٩، ٧٨، ١٥٣، ١٦٠
وليم موير: ٩٩
ويلفريد كانتويل سميث: ١١٦

ي

ياسر عرفات: ١٠٢
اليعاقبة: ٢٩، ٥٣
اليهود العلمانيون: ١٣١، ١٣٢
اليهودية: ٣٦، ٣٧، ٥٥، ٥٦، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٧٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٤
اليهودية المتصهينة: ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٦
يهوه: ١٠٥، ١٣٦
يوحنا بن سيرين: ٨٨
اليونان: ٨٧، ٩٠، ١١٠
يونس بن قره: ٣٤
يوهان سباستيان باخ: ١٣١
يوهان فولغفانغ فون غوته: ٩٨

تعاريف*

إعداد : محمد صهيب الشريف

الاستبداد **Depotism**

في اللغة هو الانفراد بالإمرة والأنفة عن طلب المشورة أو قبول النصح.

والاستبداد شكل من الحكم يستقل فيه بالسلطة شخص أو حزب، ولا يرجع فيما يصدر إلى قانون، ولا شرع، ولا يهمه إن رضي شعبه أو سخط، والمستبد قد يكون ملكاً كما كان الفراعنة، وقد يكون طاغية حاز الحكم بانقلاب، وأمسك بمقاليده بالقوة الغاشمة.

الاستشراق **Orientalism**

تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث من أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يمثل إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته.

ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة،

---

* تعاريف المصطلحات الورادة هنا ليست مطلقة المعنى، ذلك أن المؤلف يمكن أن يختار معنى محدداً للمصطلح يستعمله في كتابه، وإنما وضعنا ما وضعناه من تعريفات لمساعدة القارئ غير المختص على فهمٍ أفضل للنص.

وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة؛ معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.

الأصولية **Fundamentalism**

اصطلاح ديني من اليهودية أصلاً، استخدمه المسيحيون، ثم المسلمون.

والأصوليون في أي من هذه الديانات الثلاث هم الذين يرجعون في أحكامهم ومسائلهم الاجتهادية إلى الأصول، أي الكتب السماوية والمؤلفات المعتمدة ركائز ومصادر أولى.

ففي الإسلام مثلاً يُرجع إلى القرآن والسنة عند الأئمة الأربعة.

إكليروس - الكهنوت **Clergy**

طائفة من الكهنة التي تقوم بخدمة الدين المسيحي، كما تدل الكلمة على أحد أعضاء حزب سياسي يطالب بزيادة سلطة الإكليروس في الدولة، ويقال (النزعة الإكليروسية) للرأي أو النشاط السياسي الذي يدافع عن حق الكنيسة في الاشتراك في شؤون الحكم عن طريق الأحزاب أو الحركات السياسية.

الإلحاد **Atheism**

إنكار وجود أي إله، أو إنكار وجود إله مشخص، والمعنى الأول أكثر شيوعاً. كذلك يرفض الإلحاد جميع الحجج التي يستند إليها المفكرون في التدليل على وجود الله.

إن كون المرء ملحداً معناه عدم التسليم بصحة أي من الأديان، وتتحدد درجة تطور الإلحاد بمستوى الإنتاج المادي والعلاقات الاجتماعية، وتتوقف على الطابع الاجتماعي السياسي للمجتمع، أما أساسه النظري فهو المادية والعلم.

الإمبريالية، الرأسمالية الاحتكارية **Imperialism**

وهي المرحلة الأخيرة في تطور الرأسمالية، حيث تشكل سيطرة الاحتكارات والتجمعات الرأسمالية الضخمة سمتها المميزة. في ظل الإمبريالية تحتكر حفنة صغيرة من الاحتكارات إنتاج وتصريف أهم السلع، مما يتيح لها تعزيز استغلال العاملين، وإفلاس المؤسسات الصغيرة، وشراء المواد الأولية

بأسعار متدنية وبيع السلع بأسعار عالية، وفي أيدي الطغمة المالية تتركز السلطة في كثير من ميادين الاقتصاد والسياسة.

إيديولوجية **Ideoligy**

من أعقد وأغنى المفاهيم الاجتماعية، يعتبر كارل مانهايم أن هناك صنفين من الإيديولوجية: المفهوم الخاص والمفهوم الشامل.

فالإيديولوجية بمعناها الخاص هي منظومة الأفكار التي تتجلى في كتابات مؤلف ما، تعكس نظرته إلى نفسه وإلى الآخرين، بشكل مدرك أو بشكل غير مدرك. أما الإيديولوجية بمعناها العام فهي منظومة الأفكار العامة السائدة في المجتمع.

البوذية **Buddism**

هي ديانة ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت في بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان، كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير.

أسسها (سدهارتا جوتاما) الملقب ببوذا (٥٦٠/ ٤٨٠ ق. م) يعني المعتكف، وقد نشأ بوذا في بلدة على حدود نيبال في أسرة كان فيها أميراً يعيش حياة النعيم والترف. ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته منصرفاً إلى الزهد والتقشف والخشونة في المعيشة والتأمل، وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات، ثم دعا إلى تبني وجهة نظره حيث تبعه أناس كثيرون.

التصوف **Mysticism, Sufism**

من الصفاء أو الصوف أو من أهل الصفة أو من كلمة فيلوسوفوس حب الحكمة باليونانية، وقيل في التصوف: هو تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واتباع الرسول على الشريعة، وهو وليد نزعة الزهد.

وتعتمد فلاسفة الصوفية على تأويل القرآن والحديث، ويزعمون أن التصوف هو علم الباطن، ومن مبادئهم أنه لابد للمريد من شيخ يأخذ عنه.

ولكل شيخ طريقة، وللطريقة رباط يضم الشيوخ والشبان ويأتيهم الطعام من الصدقة أو الأحباس أو السؤال.

وللتصوف مقامات وأحوال، ويستعين الصوفية بالموسيقا والشعر والغناء لتحريك وجداناتهم، وشعرهم يكثر فيه الحب والخمر، وإنسانهم الكامل الرسول عليه الصلاة والسلام، ولغتهم فيها الإشراق والجذب والوجد والخوف.

والتصوف بالمعنى الأجنبي هو الانتصاف للوجدان من المعرفة المنطقية، لأن الوجدان يتجاوز حدود المنطق إلى حقيقة لا يصل إليها المنطق. والصوفي إنسان وجداني يغلب عنده الوجدان على العقل والمنطق. والصوفي هو الذي جعله الله وجوده الواحد، وليس مجرد شبيه به، وهو المعادل الإلهي الذي يوافق إرادته إرادة الله فيريد ما يريده الله.

التلمود

مشتقة من الجذر العبري (لامد)، ويعني الدراسة والتعليم، ويقصد به التعاليم التي وضعت لليهود لممارسة حياتهم اليومية، وتحديد أسلوب تعاملهم مع الشعوب.

ويتكون التلمود من خمسة وثلاثين جزءاً في خمسة وثلاثين مجلداً، والتلمود عبارة عن المشناة، وهي تفسير الشريعة الشفوية، والجمارة هي شرح للمشناة، ويتضمن التلمود مجموعة من الأفكار التي تكرس مبدأ الاستقلال والتفرُّد والحقد على الشعوب.

التوتاليتارية، الحكم الشامل **Totalitarianism**

أحد أشكال الحكم مبني على إخضاع الفرد للدولة، وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الأمة وطاقاتها المنتجة، وذلك على أساس افتراضات إيديولوجية تحكمية معينة تبقي الزعامة وتطبقها وتعلنها في جو من الإجماع المفروض بالإكراه على السكان كافة.

وكان هذا الاصطلاح يطلق على النظام الفاشي والنازي وكل الأنظمة الفردية الحكم.

الثورة العلمية والتقنية Scientific And Technical Revolution

تحول نوعي في عملية الإنتاج يصل إلى إحداث تعديل في طبيعة العمل بإدخال الأتمتة.

منذ عام (١٩٥٠) تطورت فنون جديدة لاستخدام الآلات التي لا تحتاج لمساهمة مستمرة من قبل الإنسان، وتدار هذه الآلات عن طريق التوجيه الإلكتروني المنظم مسبقاً حسب المعطيات المطلوبة.

وتحصل الثورة العلمية كلما سمحت نظرية جديدة بتفسير ظاهرة لم تفسر من قبل.

الثورة الفرنسية The French Revolution

هي انقلاب سياسي بدأ بفرنسا (١٧٨٩م)، وأثر في العالم كله، يختلف المؤرخون في أسبابها، فيرى بعضهم أنها حركة عقلية نشأت من حركة الاستنارة الحرة في القرن ١٨م.

ويرى آخرون أنها ثورة الطبقات المحرومة من الامتيازات ضد الطغيان الإقطاعي.

ويرى آخرون أنها توطيد لسلطة البورجوازية ضد نظام اقتصادي واجتماعي متين وعتيق.

أدت الثورة الفرنسية وحروبها وحروب نابليون إلى تقويض بناء أوربة القديم، ومهدت الطريق أمام المذاهب الحرة في القرن التاسع عشر، وعجلت بظهور القوميات.

الحداثة Modernism

هي ظاهرة غربية انطلقت من أوربة مع الثورة الفرنسية (١٧٨٩)م، وعنت التغير في النظام السياسي من النظام الملكي إلى الديمقراطي الذي يقوم على سلطة الشعب والمجالس الممثلة للشعب، واعتماد الليبرالية نظاماً اقتصادياً، والمساواة بين الجنسين على الصعيد الاجتماعي. وإلزامية التعليم للأطفال والانتقال من نموذج الجماعات والطوائف الدينية المتحاربة إلى المواطن لا ابن الطائفة أو الدين. وتذويب الطوائف والأديان في بوتقة مدنية علمانية

واحدة لا تمييز فيها على أساس عرقي أو ديني أو عملي، وبهذا تكون علاقة المواطن بالدولة لا بسلطة أخرى.

حقوق الإنسان **Human Rights**

المفهوم الواسع للحقوق الطبيعية لمجموع الكائنات الإنسانية، أي حقها في الحياة والحرية والمساواة أمام القانون.

وقد اتسعت هذه الحقوق فأصبحت تتضمن في الأزمنة الحديثة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

الديماغوجية، سياسة تملق الجماهير **Demagogy**

اصطلاح سياسي يقصد به الاتجاه الانتهازي للحكام للسيطرة على جماهير الشعب غير المثقف فيتحدث من يتجهون هذا الاتجاه عن المشروعات الاقتصادية والاجتماعية على أساس كاذب وينتهزون فرصة القلاقل الاجتماعية والبؤس بالالتجاء إلى التحيز والتحامل.

الديمقراطية، حكومة الشعب **Democracy**

معناها الحرفي هو حكومة الشعب، وهي بمدلولها العام تتسع لكل مذهب سياسي يقوم على حكم الشعب لنفسه، باختياره الحر لحكامه، وبخاصة القائمين منهم بالتشريع، ثم برقابتهم بعد اختيارهم. ولما كان إجماع الشعب مستحيلاً، وبخاصة في أمور السياسة والحكم، فإن حكومة الشعب قد أصبحت تعني عملياً حكومة الأغلبية، كنظام متميز عن نظام الحكم الفردي ونظام حكومة الأقلية.

الراديكالية (الجذرية) **Radicalism**

مذهب الأحرار المتطرفين الذين يطالبون بالإصلاحات الجذرية ولا يقبلون بالتدرج وذلك لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع.

وتمثل الراديكالية أقصى اليسار وتأتي الليبرالية في المقام الثاني ويليها مذهب المحافظين الذي يعارض أي تغييرات جوهرية.

الشيوعية **Communism**

أسس هذا المذهب كارل ماركس وفردريك إنجلز، والشيوعية هي من الأجزاء المكونة للماركسية.

وموضوع بحث الشيوعية هو القوانين التي تحكم ميلاد وتطور النظام الاقتصادي الاجتماعي الشيوعي.

وتحدد أهمية تطور العمل الاشتراكي إلى العمل الشيوعي والمحو الكامل للفروق الطبقية، ومحو الفروق في الثقافة، والتقريب على نحو أكبر بين الأمم والثقافات القومية والتقدم نحو التجانس الاجتماعي.

صراع الحضارات **The clash of civilisations**

يرى صموئيل هنتنجتون أن دور الدولة القومية كفاعل أساسي في الصراع الدولي قد تراجع، وظهر بدلاً من ذلك الصراع بين الحضارات والثوابت الحضارية. وقد نشب هذا الصراع نتيجة دخول الحضارات غير الغربية كعناصر فاعلة في صياغة التاريخ، أي إن الغرب لم يعد القوة الوحيدة في هذه العملية. فالصراع ليس حتمياً وإنما هو نتيجة دخول لاعبين جدد.

ويرى أن أساس اختلاف الحضارات هو التاريخ واللغة والحضارة والتقاليد، ولكن أهم العناصر خطراً هو الدين، فالصراع الحضاري في العالم هو في الواقع صراع ديني.

ومن هنا حديثه عن الحضارة الغربية الأرثوذكسية مقابل البروتستانتية والكاثوليكية، والحضارة الكونفوشيوسية والحضارة الإسلامية اللتين يرى أنهما تمارسان معاً التعاون لأجل اكتساب القوة والثروة.

عصر التنوير **Enlightenment Peried**

ظهر في القرن الثامن عشر في فرنسا وألمانيا اتجاه سياسي واجتماعي حاول ممثلوه أن يصححوا نقائص المجتمع القائم، وأن يغيروا أخلاقياته وأساليبه وسياسته وأسلوبه في الحياة، بنشر آراء في الخير والعدالة والمعرفة العلمية. ويكمن في أساس التنوير الزعم المثالي بأن الوعي يلعب الدور الحاسم في تطور المجتمع والرغبة في نسبة الخطايا الاجتماعية إلى جهل الناس

وافتقادهم إلى ثقتهم بطبيعتهم. ولم يكن مفكرو التنوير يضعون في اعتبارهم الدلالة الحاسمة للشروط الاقتصادية للتطور، ومن ثم لايستطيعون كشف القوانين الموضوعية للمجتمع. وكان مفكرو التنوير يوجهون مواعظهم إلى جميع طبقات المجتمع، ولكنهم كانوا يوجهونها في الأساس إلى أولئك الممسكين بالسلطة، وكان التنوير ينتشر في فترة الإعداد للثورات البورجوازية ومن مفكري التنوير (فولتير، وروسو، ومونتسكيو، وهيردر، وليسنج، وشيلر، وغوته). وقد ساعد نشاطهم بقدر كبير على التغلب على نفوذ الإيديولوجية الكنسية والإقطاعية ومناهج التفكير المدرسية (السكولائية)، ومارس التنوير تأثيراً كبيراً على تكوين النظرة العامة الاجتماعية للقرن الثامن عشر.

العقلانية **Rationalism**

أسلوب في التفكير والتفلسف، يقوم على العقل، وهي تعني قدرة الإنسان، في حياته اليومية وممارسته المعرفية، على المحاكمة الواعية، بعيداً قدر الإمكان عن تسلط المشاعر والعواطف، وعلى وزن كافة الاعتبارات لصالح أو ضد الاختيار المعني، وعلى السعي لتعليل أقواله وتصرفاته.

علم الكلام **Scholastic Theology**

ويسمى كذلك بأصول الدين، وسماه أبو حنيفة الفقه الأكبر، ويسمى بعلم النظر والاستدلال، وعلم التوحيد والصفات، وكانت تسميته بعلم الكلام لأن عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا، ويتحقق بإدارة الكلام بين الجانبين، وموضوعه إثبات العقائد الدينية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، وما يتفرع عن ذلك من مباحث عن النبوة والمعاد، وهو علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج ودفع الشبه. ويمتاز علم الكلام من علم الجدل أن الأخير لا اختصاص له بإثبات هذه العقائد، ويمتاز من العلم الإلهي باعتبار أن البحث على قانون الإسلام لا على قانون العقل. وفائدة علم الكلام وغايته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وأن تنبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها، وكان علم الكلام إسلامياً خالصاً حتى القرن الخامس، وبعد ذلك خالطته عناصر يونانية، وامتزج بالعلوم

الفلسفية. وقاوم الفقهاء فلاسفة المتكلمين، واعتبروهم من المبتدعة، ولكن المتكلمين اتجهوا هذه الوجهة الفلسفية للرد على الذين هاجموا الإسلام.

العولمة Globalization

العولمة أو الكوكبة هي مذهب القائلين بأن الرأسمالية هي ديانة الإنسانية، وأن النسبية الفكرية ستكون لها الغلبة على المطلقات الإيديولوجية، وأن مبدأ النسبية الثقافية هو المعول عليه، وليس مبدأ مركزية الثقافات، وأن العالم ينتقل حالياً ونهائياً من الشمولية والسلطوية إلى الديمقراطية والتعددية، وتشمله ثورة معلوماتية تنتشر في كل مكان، من شأنها إلغاء الحدود بين الدول بحيث يصبح من السهل انتقال الناس والمعلومات والسّلع على نطاق العالم كله، ويتم ذلك من خلال التفاعل بالحوار والمنافسة والمحاكاة. والعولمة هي رسملة العالم، وتتم السيطرة عليه في ظل هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد، وبذلك تتهافت الدول القومية، وتضعف فكرة السيادة الوطنية، ويؤول الأرفع ثقافة إلى صياغة ثقافية عالمية واحدة تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية.

ويبدو أن النمط السائد هو العولمة الأمريكية، بمعنى أمركة العالم وسيادة الإيديولوجية الأمريكية على غيرها من الإيديولوجيات، وكانت بداية ظهور العولمة نشأة اليوروماركت ودولار ماركت، وإلغاء القيود المصرفية، وتحرير سعر الفائدة، وإدماج أسواق المال المحلية في الأسواق المالية والعالمية، ودخول نمط التصنيع للتصدير، وظهور اقتصاديات المشاريع الكبيرة، وانتقال رأس المال والتكنولوجية، ويتطلب بذلك استثمارات ضخمة في التعليم وتنمية الموارد البشرية والبيئة التحتية. ولا شك أن للعولمة آثارها السلبية، مما يتمثل في إضعاف الشعور بالمواطنة، وظهور ولاءات أوسع من نطاق الدولة، دونما اعتبار للحدود القومية، واختفاء الدولة القومية، والهويات العرقية، وترسيخ الانقسامات والتشرذم والتباين في الدول المختلفة وسيادة الفوضى عالمياً فيما يطلق عليه اسم المواطنة العالمية، والعولمة غير العالمية (Univarsalism) التي تعني الانفتاح على العالم، وإقرار التباين بين الثقافات والحضارات، ووسيلة العالمية الحوار بين الحضارات، أما وسيلة العولمة فهي الصدام والصراع بين

الحضارات، والعولمة غزو ثقافي، واختراق للثقافات القومية، وإعدام للهوية الوطنية القومية بينما العالمية إثراء لهذه الثقافات بتلاقحها حضارياً وعلمياً وتقنياً، وترسيخ الهويات. وتقوم العالمية على المساواة والندية بينما العولمة تقوم على التبعية للهيمنة والتطبيع والغزو. وربط الناس برباط عولمي من اللاوطنية واللاقومية واللادينية واللادولة وسيكون الخاسر الدول النامية.

القومية **Nationalism**

مبدأ إيديولوجي وسياسي ينعكس في أفكار وتصورات، تجعل من حبّ الوطن القيمة الاجتماعية الأساسية، وتعمل على زيادة ولاء الفرد للوطن، وتنطوي القومية على الشعور بالمصير والأهداف والمسؤوليات المشتركة لجميع المواطنين.

الكولونيالية (الاستعمارية) **Colonialism**

استعمال دولة حق السيادة على إقليم خارج حدود أراضيها. فيفقد بذلك كيانه الخالص وشخصيته الدولية، وتتبع بذلك السيطرة على كافة شؤونه، والحصول على كل المزايا الاقتصادية التي تطمع فيها الدولة المستعمرة، بشكل مجحف للإقليم الواقع تحت سيطرتها.

الكونفوشيوسية **Confucianism**

نسبة إلى كونفوشيوس (كونغ فوتزو)، الذي عاش في الصين (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م)، وكان معلِّماً ومفكِّراً، أعاد تحديد الأفكار الأساسية في الحياة والفكر الصيني. ولقد أسهم في تأكيد مطابقة السياسة والقواعد الخلقية، حيث كان يعتقد أن الحكومة لديها مسؤولية أخلاقية، وليس فقط مجرد ممارسة السلطة.

ما بعد الحداثة **Post Modernism**

إن فلسفات ما بعد الحداثة ظهرت بعد ظهور وسقوط الفلسفة البنيوية، وهي تحمل رؤية فلسفية عامة، ويجب ملاحظة أن اصطلاح ما بعد الحداثة يكتسب أبعاداً مختلفة بانتقاله من مجال إلى مجال آخر، فمعنى ما بعد الحداثة في عالم الهندسة المعمارية يختلف، من بعض الوجوه، عن معناه في مجال النقد الأدبي أو العلوم الاجتماعية.

والمشروع التحديثي الغربي بدأ يتحقق تدريجياً ليمر من عصر التحديث إلى عصر الحداثة إلى ما بعد الحداثة.

والمشروع ما بعد الحداثي بهذا المعنى هو السحق النهائي لمشروع الحداثة في محاولته القضاء على خرافة الميتافيزيقا وعلى أوهام الفلسفة الإنسانية الهيومانية.

ويرى فلاسفة ما بعد الحداثة أن اللغة ليست أداة لمعرفة الحقيقة وإنما هي أداة إنتاجها، فثمة أسبقية للغة على الواقع، ولذا فإن النموذج المهيمن هنا هو النموذج اللغوي.

وما بعد الحداثة هو عالم صيرورة كاملة، كل الأمور فيه متغيرة، ولذا لا يمكن أن يوجد فيه هدف أو غاية. وقد حلت ما بعد الحداثة مشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعثر باعتباره أمراً نهائياً طبيعياً وتعبيراً عن التعددية والنسبية والانفتاح، وقبلت التغيُّر الكامل والدائم.

المثالية Idealism

هي اتجاه فلسفي يتعارض بشكل قاطع مع المادية، في حلّ المسألة الأساسية في الفلسفة. والمثالية تبدأ من المبدأ القائل إن الروحي واللامادي أولي وأن المادي ثانوي، وهو مايجعلها أقرب إلى الأفكار الدينية حول تناهي العالم في الزمان والمكان، وحول خلق الله له.

وتوضع المثالية في موضع النقيض للحتمية المادية.

محاكم التفتيش

بدأت محكمة التفتيش حوالي ١٢٣٣م حينما كلف البابا بعض الرهبان الدومينيكيين بالتحقيق في ممارسة الطائفة الألبيجنسية سراً شعائرها الدينية في فرنسا. وفي مراحل تطور هذه المحاكم في فرنسا، وشمال إيطاليا، وألمانيا. والولايات البابوية استمرت تعمل حتى القرن التاسع عشر، وأخذت تلجأ إلى أساليب التعذيب في التحقيقات التي تقوم بها، ولكن ندر أن حكمت بالإعدام حرقاً على المتهمين بالهرطقة، واكتفت عادة بالحكم عليهم بالسجن ومصادرة أملاكهم.

أقيمت محاكم التفتيش الثانية على يد فرديناند وزوجته إيزابيلا ١٤٧٨م وكانت مستقلة عن محاكم العصور الوسطى، ويشرف عليها ملوك إسبانيا.

ولم يوافق البابوات على إنشائها وبقائها إلا بعد تردد، إذ اعتبروها ماسة بحق من حقوق الكنيسة. والمفروض أنها أقيمت في إسبانيا للتجسس على اليهود الذين اعتنقوا النصرانية، وعلى المغاربة المرتدين غير المخلصين لدينهم الجديد. ولكنها تطورت سريعاً إلى شكل من أشكال الرقابة على الفكر، وأصبح كل إسباني يشعر أنه غير آمن من طغيانها.

وكانت محاكم التفتيش الإسبانية أقسى أحكاماً وأكثر لجوءاً للحكم بالموت من أخواتها اللاتي ظهرن في العصور الوسطى.

الميتافيزيقا (ماوراء الطبيعة، أو الغيب) **Metaphysics**

علم ما وراء الطبيعة، وهي تدرس المبادئ العليا لكل ماهو موجود، والتي لاتبلغها الحواس، ولا يستوعبها إلا العقل المتأمل. لكن في العصر الحديث فهمت الميتافيزيقا على أنها منهج غير جدلي في التفكير، نظراً لما تتميز به من أحادية الجانب وذاتية في المعرفة.

الهرطقة **Heresy**

تعني (في اليونانية الاختيار) والابتعاد عن النظرية الدينية الأصلية. وكانت الهرطقة الشكل الديني الذي كان عامة الناس يجتمعون به على الطبقات الحاكمة في المجتمع الإقطاعي الذي كانت تؤيده الكنيسة الكاثوليكية. ومع ظهور الرأسمالية نقدت الهرطقة نضاليتها وتحولت إلى مجرد نزعه طائفية دينية.

الهندوسية **Hinduism**

ديانة الهند الرئيسية، يدين بها الهندوس المنتشرون في الهند في المقام الأول وفي بعض أجزاء من (باكستان وبنغلادش وسري لانكا ونيبال) وقوامها الإيمان بالتناسخ وبكائن أسمى ذي أشكال، وطبائع متعددة، والقول بأن المفاهيم المتعارضة ليست غير مظاهر لحقيقة أزلية واحدة، والدعوة إلى التحرر من الشرور الدنيوية. والهندوسية من الأديان التي تعتنق الحياة كلها،

ومن هنا كانت لها مظاهرها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والأدبية. وقد نشأت من الفيدية أو الفيداوية.

الوثنية **Paganism**

الاسم الذي كان يطلقه المسيحيون والمسلمون الأُول على المشركين الذين يعبدون الأوثان، بوساطة طقوس يقوم بها الفرد نحو الأوثان التي يعبدها، والأوثان عادة تصنع على صورة الحيوان أو الإنسان، ويعتقد أنها مقر ذات فوق طبيعية تؤدى أمامها طقوس العبادة.

وقد كان الإنسان البدائي يعزو قوة خاصة لبعض الأطعمة وكان يعبر عن اتجاهه نحو تشبيه الأشياء بالإنسان بنحت الصفات البشرية من الأحجار أو الأشجار وبذلك يجعلها مقدسة.

الوحي **Revelation, Divine inspiration**

إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ولا يجوز أن تُطلق الصفة بالوحي إلا لنبي. وقيل أصله الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، ويكون بصوت مجرد من التركيب، وبإشارة بعض الجوارح، وبالكتابة، وغير ذلك.

ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلامه تعالى، وإما بإلقاء في الروع، أو بإلهام، وإما بتسخير، وإما بمنام.